
كتابى
46
إميلى برونتى
مرتفعات ويذرنج
الجزء الثالث
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الجزء الثالث

مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلي برونتي»

ملخص الجزءين الأول والثانى

عندما توفى « ايرنشو » ـ صاحب دار « مرتفعات ويذرنج » ـ خلف وراءه ولدا متلافا ، هو « هندلى » ، وابنة عنيدة ، خشنة متمردة ، هى « كاثرين » ، و .. ولدا من أصل مجهول ، التقطه من رحلة له إلى (ليفربول) ، ويغلب على الظن أنه غجرى ، هو « هيثكليف » ، وقد جمع العنف والخشونة بين كاثرين وهيثكليف ، ولكن « هندلى » حرص على التفرقة بينهما ، وعلى محاولة ترويض كاثرين وإذلال هيثكليف !.. ولم تلبث الفتاة أن تعرفت إلى « ادجار لينتون » ـ ابن صاحب الضيعة القريبة « الجرانج » ـ فبهرها منه جمال شكله ، ورقة طباعه ، ولم تلبث أن تزوجت منه بالرغم من انها كانت تزدرى ضعفه ونعومته بالنسبة لغلظة « هيثكليف » وخشونته ..

ونقم هيثكليف عليها هذا الزواج ، كما حقد على أخيها إمعانه فى إذلاله ، فلم يلبث أن اختفى من (مرتفعات ويذرنج) ، ليظهر بعد سنوات وقد أصاب قسطا من الغنى جعل « هندلى » يستضيفه فى داره .. واستغل الخبيث تردى ابن ولى نعمته فى المقامرة ، وإدمانه الشراب ، فراح يعمل على تحطيمه ، وعلى إخضاعه لسلطانه ـ بفضل ما كان يقرضه من مال يقامر به ـ وعلى إفساد ابنه « هيرتون » عليه ، وتنشئته على ما نشأ هو عليه من خشونة ، وضراوة ، وجهل

هو أقرب إلى الأمية .. وفى الوقت ذاته ، راح هيثكليف يسعى لإرضاء حقده على غريمه الذى ظفر بكاثرين ـ « ادجار لينتون » ـ متوسلا بقوة تأثيره عليها .. وهكذا تسبب فى أزمة عصفت بما كان بين الزوجين من وئام .. ثم استغل الهوى الصبيانى الذى تملك أخت ادجار ـ « ايزابيلا » ـ نحوه فعمل على تنميته ، بغية مصاهرة غريمه الارستقراطى ، ورغبة فى أن يرث أملاكه بعده !.. وإذ اكتشفت كاثرين الأمر ، عنفت فى تأنيب هيثكليف ، وطرده « ادجار » .

وأثار تدخل ادجار ثائرة كاثرين ، فتصنعت الإصابة بنوبة صرع . ثم جن جنونها إذ لم يأبه زوجها بها ، فأصابها نوع من الخبل والهذيان ، وعرضت نفسها للبرد القاسى ، فأصيبت بحمى عنيفة .. وفى غمرة المرض الفتاك ، ولوعة ادجار على زوجته ، أغرى هيثكليف « ايزابيلا » بالفرار معه ، وتزوجها ـ عن غير حب ـ ثم عاد بها إلى مرتفعات ويذرنج ، حيث راح يسومها العذاب ، إمعانا فى الانتقام من أخيها !

ولم يكتف الوغد بذلك ، بل حرص على أن يتسلل إلى (الجرانج) ، وأن يلقى كاثرين ، يتنازعه الحب لها ، والحقد عليها لأنها احتقرته وتزوجت غريمه الغنى .. وعلى أثر مشهد عنيف بينهما أثناء مرضها ، أغمى على كاثرين !.. وفى المساء ذاته ، وضعت طفلة ، حملت نفس اسمها « كاثرين » ، ثم ماتت !.. وكانت الصدمة قاسية على « ادجار » فاعتزل الناس أجمعين ، وكرس حياته لطفلته .. ولم تزد هذه

الصدمة هيثكليف إلا إمعانا فى حقده عليه ، وفى بطشه بإيزابيلا حتى اضطرت المسكينة إلى الفرار منه إلى ركن مغمور من لندن ، حيث وضعت طفلا أسمته « لينتون » ..

ثم مات « هندلى » من تأثير إفراطه فى الخمر ، فاستولى الوغد الوضيع على مرتفعات ويذرنج ، وعلى « هيرتون » ـ ابن غريمه ـ لينشئه جلفا ، فظا ، عنيفا مثله ..

وكانت « كاثرين » الصغيرة قد كبرت ، فى رعاية أبيها ومربيتها مسز « ايلين دين » ـ راوية القصة ـ دون أن ترى العالم خارج أسوار دارها ـ « الجرانج » إلا فى صحبة أبيها .. وعندما بلغت الثالثة عشرة ، تلقى ابوها من اخته « إيزابيلا » رسالة تستحلفه فيها أن يخف إلى جوارها وهى تحتضر ، فسافر .. وفى غيابه ، شقت « كاثى » عصا الطاعة على مربيتها ، وانطلقت إلى جوادها على غير هدى ، فإذا القدر يسوقها إلى (المرتفعات) ، حيث أبدى لها هيثكليف تلطفا جعلها تخدع فى حقيقته .. وحيث استهجنت هوان حال « هيرتون » وفظاظته ، دون أن تدرى انه ابن خالها !

وأقبل « لينتون » مع خاله ـ الذى اعتزم أن يكفله ـ فاذا به ضعيف ، هياب ، حائر ، كثير البكاء .. على أنه كان جميلا برغم ذلك ، وقد اجتذب « كاثى » بحاله هذه . ولكن أباه « هيثكليف » لم يكد يعلم بوصوله ، حتى اصر على انه

أولى بكفالته ، واستطاع أن يأخذه من خاله .. وكأنما كان هذا طعما لاستدراج « كاثى » إلى مرتفعات ويذرنج ، ولتحويل عطفها على الفتى إلى حب .. فلما فطنت المربية ، حالت بين الفتاة وبين مراسلة « لينتون » أو زيارة مرتفعات ويذرنج . وساعدها على ذلك أن « ادجار » كان قد أصيب بمرض خطير ، يخشى منه عليه إذا هو عرف الأمر .

ولكن هيثكليف فاجأ الفتاة يوما ـ وهى مع مربيتها خارج الدار ـ وأنبأها بأن حزن « لينتون » لانقطاع صلته بها قد أسلمه إلى مرض يوشك أن يقضى عليه .. وهدد ، وأنذر .. ثم قال انه سيغيب عن داره أسبوعا ، وفى وسع الفتاة ان تتأكد خلال ذلك من صدق قوله ..

وفى الصباح التالى ، انطلقت الفتاة مع مربيتها إلى مرتفعات ويذرنج ، لترى ما إذا كان لينتون مريضا حقا !

والآن تستطيع أن تستأنف القصة :

***



الفصل الثالث والعشرون

أسفرت الليلة المطيرة عن صباح تحجب ضياءه غلالة من الضباب الرطيب ، كان بعضـه من ندف الثلج السابحة فى الهواء ، وبعضه الآخر من رذاذ خفيف من قطرات المطر المعلقة فى الفضاء .. وكانت جداول المـاء تنساب من أعلى التلال ، فى قرقرة خافتة ، فتقطع طريقنا بين وقت وآخر .. واصاب البلل قدمى ، فزاد من حنقى وضيق صدرى ، وجعلنى فى تلك الحالة من السخط التى تلازمنا عندما نقدم على صنع شىء لا تهش له نفوسنا ..

وجعلت دخولنا إلى « المرتفعات » عن طريق المطبخ ، حتى استوثق من غياب مستر هيثكليف حقا ، إذ كنت قليلة الثقة بما يقوله ويؤكده !.. ووجدت جوزيف ، وقد بدا كأنه ينعم وحده بجنة لا يشاركه فيها أحد ، جالسا بجوار موقد احتدم اواره ، وعلى المـائدة القريبة منـه قدح مثل الدلو ملىء بالجعة ، رصت حوله قطع كبيرة من فطير الشوفان المقدد ، وقد وضع غليونه الأسود القصير فى ركن فمه .. وهرعت كاثرين إلى الموقد تستدفىء بناره المستعرة ، بينما كنت أسأله إن كان السيد داخل الدار .. ولقد ظل سؤالى بلا جواب فترة طويلة ، حتى خلت أن العجوز قد أصابه الصمم ، فأعدت عليه السؤال بصوت أشد ارتفاعا ..

فانبعث يزمجر ، أو بالأحرى انه كان يصرخ من أنفه :

ـ كلا .. كلا .. وما عليكما إلا أن تعودا من حيث اتيتما !

وكدت أهم بالرد عليه عندما صاح صوت حانق من الحجرة الداخلية :

ـ جوزيف !.. كم مرة ينبغى لى أن أناديك ؟.. لم يبق فى المدفأة إلا جمرات قليلة يكسوها الرماد الآن .. جوزيف ! .. تعال فى الحال !

ولكن انفاس الغليون القوية المتلاحقـة ، وتلك النظـرة الساهمة نحو الموقد ، كانت تنبىء بأنه لا يعير هذا النداء اذنا صـاغية .. وكانت مدبرة المنـزل وهيرتون مختفيين عن الأنظار ، ولعل الأولى خرجت فى جولة لتبتضع ، وانصرف الثانى إلى عمله فى الحقول .. وعرفنا صوت لينتون ، فدخلنا إليه .. وكان عندما سمع وقع خطانا ، قد حسبنا خادمه الذى يهمله ولا يعنى به ، فصاح قائلا :

ـ آه !.. كم أتمنى ان تهلك جوعا فى سجن سحيق !

فلما تبين خطاه ، سكت فجاة ، بينما اندفعت بنت خاله نحوه كالطير الحبيس يطلق من عقاله .. فرفع رأسـه عن مسند المقعد الكبير الذى كان مضطجعا فيه ، وقال :

ـ أهذه أنت يا مس لينتون ؟.. كلا .. كلا .. لا تقبلينى ، فإن ذلك يقطع انفاسى ويجعلنى الهث كالمخنوق !

فلما افاق قليلا مما غشيه من عناق كاثرين ، التى وقفت جانبا وقد بدت عليها خيبة الأمل ، استطرد يقول :

ـ يا إلهى !.. لقد قال لى أبى انك قد تحضرين لزيارتى ، وها قد صح حدسه .. هل لك أن تتكرمى بإغلاق الباب ؟..

لقد تركته مفتوحا وراءك ، كما أن هؤلاء .. هؤلاء المناكيد لا يريدون إحضار الفحم للمدفأة !.. آه !.. ما أشد البرد الآن !

فأخذت احرك الرماد واحضرت بنفسي ملء دلو من فحم غذيت به النار .. فراح العليل يشكو ويتذمر من تطاير بعض الرماد عليه ، ولكنه لم يلبث أن فاجأته نوبة من السعال الأليم أسكتته .. وكان يبدو سقيما محموما مما جعلني أغضى عن سوء خلقه ..

فلما انتهى سعاله ، وانفرجت أساريره ، غمغمت كاثرين قائلة :

ـ حسنا يا لينتون .. هل سرتك رؤيتي ؟.. وهل بوسعي أن أكون ذات نفع لك ؟

ـ لماذا لم تحضري قبل الآن ؟.. كان الأولى بك أن تأتي بنفسك بدلا من الكتابة لي ، فان تلك الخطابات الطويلة ارهقتني إرهاقا مروعا !.. وكنت أفضل لو تحدثت إليك بدلا من تدبيجها .. اما الآن فلم اعد احتمل الكلام ولا أي شيء آخر !.. ترى أين زيللا ؟

ثم التفت نحوي ، واستطرد يقول :

ـ هل لك ان تذهبي إلى المطبخ لترى أين هي ؟

ولم اكن قد تلقيت منه لفتة أو كلمة شكر على خدمتي الأخرى بتزويد المدفأة بالفحم ، وإذ كنت غير راغبة في الذهاب إلى هنا وإلى هناك تنفيذا لمشيئته ، فقد اكتفيت بأن اجبته : « ما من أحد هناك سوى جوزيف »

فأشاح بوجهه عني ، وهو يقول في ضيق وتبرم :

ـ أريد جرعة من الماء .. وقد اعتادت زيللا أن تهيم على وجهها إلى جيمرتون منذ أن غاب أبي ، وتركتني أعاني هذا الشقاء .. لقد اضطررت إلى النزول إلى هنا ، فقد اصروا على تجاهل ندائي كلما بقيت في الطابق العلوي ..

وإذ رأيت كاثرين قد صدت في محاولاتها الودية للتقرب إليه ، سألته :

ـ هل تجد من أبيك رعاية كافية يا سيد لينتون ؟

ـ رعاية كافية ؟.. انه على الأقل ، يجعل الآخرين يولونني شيئا من الرعاية في حضوره .. ولكن يا لهم من أوغاد أشقياء !.. هل تعرفين يا مس لينتون ان ذلك الوحش هيرتون يضحك مني ساخرا ؟.. إنني اكرهه .. بل إنني في الواقع اكرههم جميعا .. فإنهم ثلة من المخلوقات البغيضة الممقوتة !

وبدأت كاثي تبحث في الحجرة عن بعض الماء لتسقيه ، حتى عثرت على ابريق فوق الخوان ، فملأت منه كوبا وأحضرتها إليه .. ولكنه طلب إليها أن تضيف إليه ملء ملعقة من النبيذ من زجاجة موضوعة فوق المائدة .. ثم جرع رشفة صغيرة ، بدا بعدها اشد راحة وأكثر هدوءا ، وقال انها رحيمة رقيقة الشعور ..

وسرها أن تلمح على شفتيه إشراق فجر ابتسامة ، فعادت تكرر سؤالها الأول :

ـ وهل انت مسرور لرؤيتى ؟

ـ نعم .. اننى كذلك حقا .. فان سماع صوت كصوتك امر جديد على .. ولكن امتناعك عن الحضور سبب لى كثيرا من اللوم والإيلام ، فقد أقسم أبى إننى المسئول عن ذلك ، وكان يصفنى بأننى «شيء تافه خائر النفس يدعو إلى الرثاء» ! .. ويقول انك تحتقريننى ، وانه لو كان فى محلى لكان قد اصبح الآن سيد « الجرانج » اكثر من ابيك .. ولكنك لا تحتقريننى ، أليس كذلك يا مس ..

فقاطعته سيدتى الصغيرة قائلة :

ـ بودى أن تقول كاثرين او كاتى .. انا احتقرك ؟.. كلا .. كلا .. انك أحب الناس إلى نفسى بعد ابى وايلين !.. ومع ذلك فانى لا أحب مستر هيثكليف ، ولن أجرؤ على الحضور إلى هنا بعد عودته .. فهل سيغيب أياما عديدة ؟

ـ لن يطول غيابه كثيرا .. ولكنه يكثر من الذهاب إلى البرارى منذ أن بدأ موسم الصيد ، وسيكون فى وسعك أن تقضى معى ساعة أو اثنتين فى غيبته .. قولى انك ستفعلين ، واحسبنى لن اكون نكدا مشاكسا معك ، لانك لا تثيرين غضبى ، بل تبدين دائما راغبة فى مساعدتى .. هل ستحضرين ؟

فأجابت وهى تربت على شعره الطويل الناعم :

ـ نعم .. إذا استطعت فقط أن انال موافقة أبى .. عندئذ سوف اقضى نصف وقتى معك يا لينتون الجميل .. شد ما وددت لو انك كنت أخى !

فأجاب فى لهجة مرحة طروب :

ـ فى تلك الحالة سوف تحبيننى كما تحبين أباك .. ولكن أبى يقول انك سوف تحبيننى اكثر منه ومن أى إنسان فى العالم ، إذا ما كنت زوجتى .. لذلك أفضل لو كنت زوجة لى !

فقالت فى رصانة :

ـ كلا .. لن أحب احدا قط أكثر مما أحب ابى !.. ثم ان الناس يكرهون زوجاتهم احيانا ، ولكنهم لا يكرهون إخوتهم وأخواتهم .. ولو كنت أخى لأقمت معنا ، ولأحبك أبى وتعلق بك مثلما يحبنى ويتعلق بى ..

فأنكر لينتون أن الناس يكرهون زوجاتهم قط ، ولكن كاثى عادت تؤكد أنهم يفعلون ، وتدفقت الحكمة من فمها عندما ضربت مثلا لذلك كراهية أبيه نفسه لعمتها .. وحاولت أن اتدخل لأكبح زمام لسانها الطائش ، ولكنى لم أفلح فى ذلك حتى كانت قد اخرجت من جوفها كل ما تعرفه .. فصاح لينتون ، وقد استبد به الضيق ، يؤكد أن قصتها كاذبة ..

فقالت كاثرين فى صراحة أشبه بالقحة :

ـ لقد أخبرنى أبى بذلك .. وأبى لا يكذب قط ..

فصاح لينتون :

ـ إن أبى يزدرى أباك ويحتقره ، ويسميه المغفل الخسيس !

فردت عليه كاثرين :

ـ إن أباك رجل شرير ، وأنت أشد شرا منه إذ تردد ما يقوله .. ولابد أنه بلغ غاية الشر حتى دفع عمتى ايزابيلا إلى هجره كما فعلت !

ـ إنها لم تهجره .. فلا تعارضينى !

فصرخت سيدتى الصغيرة :

ـ بل هجرته فعلا ..

عندئذ قال لينتون :

ـ حسنا .. سوف أخبرك أنت بشىء يهمك .. لقد كانت أمك تكره أباك ، فما رأيك ؟

فشهقت كاثرين ، وأخرسها الغضب عن النطق إلا بكلمة : « أوه !.. » فاستطرد يقول :

ـ وكانت تحب أبى !

فتلاحقت أنفاسها وتورد وجهها بحمرة الغضب والانفعال ، ثم صاحت :

ـ ايها الكاذب الصغير ، إننى اكرهك الآن !

ولكن لينتون غاص فى مقعده ، وأسند راسه إلى ظهر المقعد وراح يرمق غريمته فى الجدال ـ وكانت تقف خلفه ـ مستمتعا بما يبدو عليها من انفعال وغضب . وما لبث ان راح يكرر فى لهجة منغومة :

ـ كانت تحبه !.. كانت تحبه !

فتدخلت قائلة :

ـ صه يا سيد لينتون ! .. هذه أيضا رواية أبيك . فيما اظن ..

ـ إنها ليست روايته .. وعليك أن تمسكى لسانك !.. كانت تحبه !.. كانت تحبه يا كاثرين !.. كانت تحبه !.. كانت تحبه !

فطاش صواب كاثرين ، ودفعت المقعد دفعة قوية جعلت لينتون يهوى على احد ذراعيه ، وما لبث أن أصابته نوبة من السعال الخانق وضعت حدا لزهوه وانتصاره .. ودامت النوبة طويلا حتى اقلقتنى ، اما ابنة خاله ، فقد راحت تبكى بكل قوتها ، وقد اذهلها ما أقدمت عليه من اذى ، ولو أنها لم تقل شيئا تعتذر به عما اقترفته .. وامسكت به بين ذراعى حتى زالت عنه نوبة السعال ، وعندئذ دفعنى بعيدا ، وأحنى راسه فوق صدره حيث لبث صامتا بلا حراك .. وكفكفت كاثرين عبراتها ، هى الأخرى ، وجلست ناحية ، وهى تنظر إلى النار فى وجوم ..

وانقضت دقائق عشر على هذا النحو ، فقطعت الصمت الذى يرين فوقنا ، لأسأله :

ـ كيف حالك الآن يا سيد هيثكليف ؟

ـ ليتها تحس بما أحس به ، هـذه المخلوقة القاسية الحقود !.. ان هيرتون لا يمسنى بأصبعه قط ، ولم يضربنى مرة واحدة فى حياته .. ثم انى كنت احسن حالا اليوم ، وها هى ذى قد ..

واختنق صوته فى نشيج حار ، فلم يتم عبارته .. بينما أخذت كاثرين تعض شفتها حتى تحول دون انفجارها باكية من جديد ..

وظل يئن ويتوجع ، كشخص يعانى آلاما مروعة ، أكثر من ربع ساعة .. وكان من الجلى انه كان يفعل ذلك عن عمد ليزيد من كرب ابنة خاله وضيقها ، إذ كان كلما لمح عبرة تنساب من عينيها فى صمت ، زاد من انغام الألم المتجدده فى صوته الباكى !

ونفد احتمالها اخيرا ، فما لبثت ان قالت :

ـ إننى آسفة لما الحقته بك من اذى يا لينتون .. ولكنى ـ انا ـ ما كنت لأتألم من مثل هذه الدفعة اليسيرة ، وما خطر ببالى انها سوف تؤلمك .. ولكنها لم تؤذك كثيرا ، اليس كذلك يا لينتون ؟.. قل انك لم تتألم منها كثيرا ، ولا تدعنى اعود إلى منزلى وانا افكر فى اننى قد آذيتك .. اجب .. كلمنى !

ـ لا أستطيع أن أكلمك !.. لقد آذيتنى إلى درجة سوف تجعلنى اقضى الليل مسهدا مختنقا من هذا السعال اللعين .. ولو أنك أصبت به لعرفت ما هو .. ولكنك سوف تستغرقين فى نوم هادىء مريح ، بينما أتألم وحدى ، وليس بقربى أحد .. ترى كيف تحبين أن تقضى هذه الليالى المروعة ، لو أصابك ما اصابنى ؟!

فقلت له :

ـ ما دمت قد اعتدت على قضاء هذه الليالى الفظيعة ،

فان الآنسة ليست هى التى تفسد راحتك ، ولن يتغير عليك شيء لو لم تكن قد حضرت .. ومهما يكن من أمر يا سيد لينتون ، فانها لن تزعجك مرة أخرى ، وأرجو لك المزيد من الراحة والهدوء بعد ذهابنا ..

ولكن كاثرين مالت فوقه وهى تسأله فى حزن وأسى :

ـ هل يجب أن اذهب ؟.. هل تريد ان أذهب يا لينتون ؟

فأجابها فى سخط :

ـ انك لا تستطيعين تغيير ما أحدثته !.. إلا إذا زدته سوءا بمضايقاتك لى حتى تصيبينى بالحمى !

فرددت سؤالها من جديد : حسنا .. هل يجب أن أذهب إذن ؟

فقال وهو يرتد إلى الوراء نافرا :

ـ دعينى وحدى على الأقل ، فانى لا اطيق كلامك !

فتلكأت لحظة ، وهى تقاوم طويلا إلحاحى عليها بالانصراف .. فلما وجدته لا ينظر إليها ولا يكلمها ، بدأت تسير متمهلة نحو الباب ، وبدأت أسير فى أعقابها .. ولكن ردتنا عن المضى فى طريقنا صرخة مفاجئة ، فقد انزلق لينتون من مقعده وهوى إلى الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة ، حيث راح يتلوى ، لا من الألم ، وإنما لمجرد المشاكسة المنبعثة من طفل عريق فى الشغب ، يعمل بكل ما فى وسعه على مضايقة الغير ومعاندته .. وقد استطعت أن أتبين حقيقة ميوله من مسلكه ، وادركت للتو أن من الجنون بذل أية محاولة للتسرية عنه أو

تسليته وإدخال السرور على نفسه .. ولكن رفيقتى لم تكن على هذا الراى ، فقد عادت إليه فى عجلة ولهفة وفزع ، وجثت على الأرض بجانبه ، وهى تذرف الدمع السخين وتدلله وتهدىء من روعه ، حتى هدأ أخيرا بعد أن انقطعت انفاسه من كثرة الصراخ ، وليس من تأنيب ضميره لإزعاجه إياها !.. فتدخلت قائلة :

ـ سوف أحمله إلى الأريكة ، حيث يمكنه أن يتلوى ويتقلب كيفما يروق له ، إذ ليس فى وسعنا أن نبقى لرعايته وحراسته .. وارجو يا مس كاثى أن تكونى قد اقتنعت الآن بأنك لست الشخص الذى يفيده وجوده ، وأن حالته الصحية ليس مرجعها إلى تعلقه بك .. ها قد وضعته فوق الأريكة ، فتعالى ننصرف !.. وما إن يدرك أن ليس هنا من يبالى بهرائه ، حتى يخلد إلى السكون راضيا مسرورا ..

ولكنها أحضرت وسادة وضعتها تحت رأسه ، وعرضت عليه بعض الماء ، غير انه رفض الماء وراح يتململ فوق الوسادة كأنها حجر أو كتلة من الخشب ، فحاولت أن تجعلها اكثر راحة له ، ولكنه قال :

ـ انها لا تريحنى ، فهى ليست مرتفعة كما يجب ..

فأحضرت كاثرين وسادة أخرى وضعتها فوق الأولى .. ولكن ذلك المخلوق المثير غمغم قائلا :

ـ انها أعلى مما ينبغى !

فسألته فى يأس :





فقد انزلق لينتون من مقعده وهوى الى الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة ..

ـ وكيف تريد أن أسويها إذن ؟

فدار حول نفسه حتى رفع رأسه واتخذ له متكأ فوق كتف كاثرين التى كانت منحنية بجانب الأريكة .. فقلت :

ـ كلا .. ان هذا المسند لا يصلح لك يا سيد هيثكليف ، وعليك أن تقنع بالوسادة ، فقد أضاعت الآنسة عليك من وقتها ما فيه الكفاية حتى الآن ، ولن نستطيع البقاء خمس دقائق أخرى ..

فقاطعتنى كاثى قائلة :

ـ كلا .. كلا .. بل نستطيع البقاء !.. انه الآن طيب صبور ، وقد بدأ يفهم أننى كنت خليقة بأن أحس بشقاء عظيم ، أكثر مما سوف يعانيه ، لو اعتقدت أن زيارتى له هى التى زادته سوءا ، واننى بذلك لن أجرؤ على معاودة الزيارة .. قل الحقيقة يا لينتون ، لأننى لن أحضر ثانية إذا كنت قد آذيتكَ !

فأجاب :

ـ بل يجب عليكَ ان تأتى ، لتساعدى على شفائى .. يجب أن تأتى لأنك آذيتنى ، وانت تعرفين إلى أى حد بلغ إيذاؤك هذا .. فلم أكن مريضا عند قدومك بالقدر الذى بلغته الآن ، أليس كذلك ؟

فقلت له :

ـ بل أنت الذى أسأت إلى صحتك بإمعانك فى البكاء والصراخ والانفعال ..

وقالت ابنة خاله :

ـ إننى لم افعل شيئا على الاطلاق !.. ولكننا ، على اية حال ، سوف نغدو أصدقاء الآن ، فهل تريدنى حقا ؟.. هل تود ان ترانى بين الحين والآخر ؟

فأجاب فى صبر نافد :

ـ قلت لك اننى أود ذلك !.. والآن تعالى اجلسى على الأريكة ، ودعينى اتوسد ركبتك .. فهكذا كانت تفعل أمى امسيات برمتها !.. اجلسى ساكنة ولا تتكلمى قط .. ولكن فى وسعك أن تغنى ، إذا كنت تعرفين الغناء .. أو لعلك تسمعيننى ملحمة طويلة مسلية ، من تلك الملاحم التى وعدت بأن تعلمينى إياها ، أو تقصين على قصة جميلة .. ولكننى افضل الملحمة .. هيا .. ابدئى !

فأخذت كاثرين تنشد له أطول ملحمة استطاعت أن تتذكرها .. وطابت نفساهما لهذه المهمة . وطلب لينتون ملحمة غيرها ، ثم أخرى بعدها ، برغم اعتراضاتى المتكررة .. وظلا على هذه الحال حتى دقت الساعة الثانية عشرة ، وسمعنا صوت هيرتون فى الفناء وهو يعود لتناول الغداء ..

ونهضت كاثرين متكرهة ، فأمسك لينتون الشاب بطرف ردائها وهو يقول :

ـ الا تأتين إلى هنا فى الغد يا كاثرين ؟

فتوليت الإجابة ، وقلت :

ـ كلا .. لا فى الغد ولا بعده !

ويبدو أنها ، برغم ذلك ، قد طمأنته بإجابة مختلفة ، إذ رأيت وجهه يتهلل فرحا وهى تنحنى فوقه وتهمس فى أذنه..

فلما غادرنا المنزل ، بدأت أقول :

ـ إنك لن تحضرى غدا يا آنسة ، فاذكرى ذلك جيدا .. ولا أظنك تحلمين بشىء كهذا ، أليس كذلك ؟

ولكنها لم تزد على الابتسام ، فاستطردت قائلة :

ـ آه !.. سوف آخذ حذرى تماما .. سوف أصلح ذلك القفل ، ولن تجدى طريقا أخرى تهربين منها ..

فقهقهت مسرورة ، وقالت :

ـ سوف أتسلق السور !.. فان « الجرانج » ليس سجنا يا ايلين ، وأنت لست سجانتى .. وفضلا عن ذلك فانى أشرفت على السابعة عشرة ، وأصبحت امرأة !.. وانى واثقة من شفاء لينتون سريعا ، إذا ما أتيح له أن أقوم على العناية به ورعايته .. ثم اننى ، كما تعرفين ، اكبر منه سنا ، وأكثر تعقلا ، وأقل تدللا وصغارا ، أليس كذلك ؟.. ولن يلبث حتى يستجيب لتوجيهاتى ، مع قليل من الملاينة والملاطفة من جانبى .. فانه يغدو فتى جميلا رقيقا عندما يكون فى أطيب حالاته .. وسوف أجعل منه طفلى المدلل ، لو أصبح لى .. اننا لن نتشاجر قط بعد أن يعتاد أحدنا الآخر .. أليس كذلك ؟.. ألا تحبينه يا ايلين ؟

فصحت قائلة :

ـ أحبه ؟.. انه أسوأ مضغة رأيتها تناضل الأسقام لتبلغ سن المراهقة ، خلقا وطباعا .. ومن حسن الحظ انه لن يبلغ العشرين قط ، كما تكهن مستر هيثكليف .. بل إننى لأشك حقا فى بقائه حيا إلى الربيع القادم .. وما أقلها من خسارة سوف تصيب أسرته بموته عندما يحين أجله !.. لقد كان من حسن طالعنا أن أباه قد أخذه ، فلو بقى معنا لظل يزداد انانية ونكدا ، كلما زدناه عطفا ورفقا !.. وكم يسرنى انه لن تتاح لك أية فرصة لتتخذى منه زوجا لك يا مس كاثى !

فقطبت رفيقتى أساريرها فى وجوم وهى تسمع هذا الحديث .. فان كلامى عن موته بهذه البساطة وقلة الاكتراث قد جرح شعورها .. ومالبثت أن قالت ، بعد فترة من التفكير والتأمل :

ـ إنه أصغر منى ، وهو بذلك خليق بأن يعيش أكثر منى .. وسوف يعيش !.. بل لابد أن يعمر مثلى على الأقل !.. وهو الآن من القوة بمثل ما كان عند قدومه إلى الشمال أول مرة .. إننى واثقة أن علته ليست إلا بردا خفيفا ، كالذى أصاب والدى .. وأنت تقولين إن أبى سوف يشفى قريبا ، فلماذا لا يشفى هو كذلك ؟

فصحت بها حانقة :

ـ حسنا .. حسنا .. لاحاجة بنا لأن نشغل نفسينا بهذا



الأمر .. فأصغى إلى يا آنسة ، وتدبرى قولى جيدا ، إذ اننى سوف أحافظ على كلمتى .. انك إذا حاولت الذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » ثانية ، سواء معى أو بدونى ، فسوف أخبر مستر لينتون .. ومالم يسمح لك ، فان كل صلة بينك وبين ابن عمتك يجب ألا تتجدد قط ..

فغمغمت كاثى فى تجهم :

ـ لقد تجددت فعلا ..

ـ إذن يجب ألا تستمر ..

فكان جوابها : « سوف نرى ! » ، ثم أطلقت العنان لمهرها فانطلق يعدو بها ، تاركة إياى أسير مكدودة فى المؤخرة !

وبلغنا المنزل قبل موعد غدائنا .. وكان السيد قد حسبنا نقوم بجولة فى البستان ، فلم يسألنا تفسيرا لغيبتنا الطويلة ..

وما كدت ادخل المنزل حتى أسرعت أستبدل حذائى وجواربى المبللة ، ولكن بقائى بها مدة طويلة فى « المرتفعات » كان قد أحدث أثره السيىء .. ففى صباح اليوم التالى لم أستطع القيام ، ولزمت الفراش ثلاثة أسابيع كاملة عجزت خلالها عن الاضطلاع بواجباتى فى المنزل .. ولم أكن قد عانيت مثل هذا المرض قبل ذلك ، كما أننى ـ والحمد الله ـ لم أصب بمثله منذ ذلك الحين ..

وكان مسلك سيدتى الصغيرة أشبه بالملائكة ، وهى تأتى لخدمتى والعناية بى والترفيه عنى فى وحدتى .. وكان

اعتكافى هذه المدة محطما لروحى المعنوية إلى حد بعيد ، فليس أشد إيلاما ، لشخص اعتاد الحركة والنشاط ، من اضطراره إلى التزام السكون والجمود .. ولكن ذلك ، والحق يقال ، كان سببا تافها للتذمر والشكوى .. فان كاثرين كانت لا تكاد تغادر حجرة أبيها ، حتى تهرع إلى جوار فراشى .. كان يومها مقسما بيننا كلينا ، لاتقتطع منه لحظة لمتعتها الخاصة .. بل لقد أهملت وجبات طعامها ، ودروسها ، ولعبها .. كانت أشد الممرضات ولعا بواجباتها وتعلقا بها .. ولا ريب أنها كانت تضم صدرها على قلب كبير ، استطاعت أن تهبنى منه الكثير ، مع حبها العظيم لأبيها .. وقد قلت إن أيامها كانت مقسمة بيننا ، ولكن السيد كان يعتكف مبكرا ، كما أننى لم اكن أحتاج لشىء عادة بعد الساعة السادسة .. وهكذا كانت الأمسيات ملكا خالصا لها .. يا للطفلة المسكينة !.. إننى ما فكرت قط فيما كانت تشغل به نفسها فى تلك الأمسيات بعد تناول الشاى .. ومع أننى لاحظت كثيرا ، عند ما كانت تأتى إلى حجرتى لتتمنى لى ليلة طيبة ، توردا نضيرا فى وجنتيها ، واحمرارا قانيا فى أصابعها النحيلة ، إلا أننى كنت أعزو ذلك إلى توهج النار فى المدفأة ، بدلا من أن أفكر فى احتمال حدوثه من رحلة على الجواد فى برد البرارى القارس !

* * *

الفصل الرابع والعشرون

فى ختام الأسابيع الثلاثة ، استطعت أن أغادر حجرتى وأتمشى فى أنحاء المنزل .. فلما أتيح لى الجلوس فى المساء لأول مرة بعد مرضى ، رجوت كاثرين أن تقرأ لى لأن عينى كانتا كليلتين ، أضعفهما المرض .. وكنا جالستين فى المكتبة ، بعد أن أوى السيد إلى فراشه ، فخيل إلى أن رضى كاثرين كان مشوبا بشىء من التردد أو التكره ، وعزوت ذلك إلى أن كتبى من النوع الذى لاتروق لها مطالعته ، فطلبت اليها أن تتولى بنفسها اختيار ماتقرؤه ، فانتقت أحد كتبها المفضلة ومضت تقرأ لى زهاء ساعة كاملة ، ثم بدأت بعد ذلك تقطع القراءة لتمطرنى بالأسئلة :

ـ ألست متعبة يا ايلين ؟ .. أليس الأفضل أن تخلدى إلى فراشك الآن ؟.. هل يعاودك المرض من طول السهر يا ايلين ؟

فكنت فى كل مرة أجيبها : كلا .. ياعزيزتى .. لست أشعر بأى تعب قط ..

فلما رأتنى لا أتحرك من مكانى ، لجأت إلى محاولة أخرى تظهر بها نفورها من هذه المهمة ، فانقلب الأمر إلى التثاؤب والتمطى ، حتى ضاق ذرعها فقالت :

ـ لقد تعبت يا ايلين ..

ـ دعى القراءة إذن ، ولنتكلم سويا ..

ولكن ذلك كان لديها أسوأ من القراءة ، فراحت تتململ

وتتنهد ، وتنظر إلى ساعتها حتى بلغت الساعة الثامنة ، فنهضت لتذهب إلى حجرتها .. وحدست من نظراتها المتبرمة الثقيلة ، ومن فرك عينيها طويلا ، أن النعاس قد أنهكها تماما ولم تعد تقوى على مغالبته .. وفى الليلة التالية كانت أضيق صدرا وأكثر تبرما .. وفى الليلة الثالثة من ملازمتها لى شكت من صداع أصابها ، وتركتنى مبكرة .. وخيل لى أن مسلكها يبدو غريبا ، فلما طال مكثى وحيدة فترة طويلة ، رأيت أن أذهب إليها لاستفسر منها إن كانت قد تحسنت ولأسألها أن تأتى لتضطجع على الاريكة بدلا من بقائها فى الظلام فى الطابق العلوى وحدها .. ولكننى لم أجد أثرا لكاثرين فى الطابق العلوى ولا فى غيره من ارجاء البيت .. وأكد لى الخدم جميعا أنهم لم يروها .. فرحت أنصت مليا عند باب مستر لينتون ، ولكن الصمت كان يسود الحجرة فلم أسمع فيها صوتا أو حسا .. وأخيرا عدت إلى حجرتها ، وأطفأت شمعتى ، وجلست أنتظر فى فراغ النافذة ..

كان القمر يغمر الحديقة بضيائه المتألق ، والأرض قد اكتست بغلالة رقيقة من ندف الثلج المتساقطة ، فخطر لى أنها قد تكون فكرت فى القيام بجولة فى الحديقة تنعشها وتخفف من صداعها .. وما لبثت أن لمحت فجأة شبحا يسير فى حذر بجوار سياج الحديقة الداخلى ، حسبته بادىء الأمر سيدتى الصغيرة ، ولكنه ما إن برز إلى الضياء حتى تبينت فيه أحد السياس .. وظل واقفا فترة طويلة يتطلع إلى طريق العربات الخارجى فى اهتمام ، وإذا به يندفع بغتة فى خطى

حشيشة ، كأنما اكتشف شيئا يرقبه ، ثم مالبث أن ظهر بعد قليل وهو يسحب وراءه مهر الآنسة ، وهى تسير إلى جانبه بعد أن ترجلت عنه فى التو واللحظة .. ومضى الرجل بوديعته فى حذر وتلصص نحو الأسطبل ، بينما تسللت كاثى إلى المنزل من نافذة مفتوحة فى حجرة الجلوس ، وتسلقت الدرج فى خفة وسكون إلى حيث كنت فى انتظارها فى الطابق العلوى !.. وأغلقت باب الحجرة خلفها فى رفق ، ثم نزعت حذاءيها اللذين كساهما الثلج ، وخلعت قبعتها ، وشرعت تتقدم ، دون أن تحس بتجسسى عليها ، لتضع معطفها جانبا ، وعندئذ نهضت بغتة وبرزت من مكمنى !

وعقلت المفاجأة لسانها من الفزع لحظة ، وبدا ارتياعها فى الشهقة التى انبعثت منها ، وجمدت فى مكانها بلا حراك ..

وكنت شديدة التأثر بما بدا منها من رفق وعناية بى أثناء مرضى القريب ، فبدأت أقول لها دون أن تنطوى كلماتى على شىء من التأنيب أو اللوم ..

ـ إلى اين ذهبت على ظهر جوادك فى مثل هذه الساعة ياعزيزتى الآنسة كاثرين ؟ .. ولماذا حاولت خداعى باختلاق الأكاذيب ؟ .. اين كنت ؟ .. تكلمى !

فتعثرت الكلمات فى فمها وهى تقول :

ـ لقد ذهبت أتنزه عند نهاية البستان ! ولم أختلق أية أكاذيب !

ـ الم تذهبى إلى أى مكان آخر ؟ ..

فلم تزد على أن غمغمت قائلة : « كلا .. »

فقلت فى أسى وقد تهدج صوتى بالبكاء :

ـ أواه ياكاثرين !.. انت تعلمين انك قد أتيت خطأ كبيرا ، والا ما اندفعت إلى الكذب على .. وان ذلك ليحزننى كثيرا .. ولقد كان الأولى لى أن يدوم مرضى ثلاثة أشهر ، من أن اسمعك تختلقين الكذب عمدا ..

فاندفعت إلى الأمام ، وهى تنفجر باكية ، واحاطت عنقى بذراعيها ، قائلة :

ـ حسنا يا ايلين .. لقد كنت أخشى أن تغضبى منى ، فعدينى الا تغضبى ، وسوف تعرفين الحقيقة بحذافيرها ، لأننى أكره إخفاءها عنك ..

فجلسنا على مقعد بجوار النافذة ، واكدت لها اننى لن أؤنبها مهما يكن سرها ، ولو اننى بالطبع كنت قد حدسته .. فبدأت تقول :

ـ لقد كنت فى « مرتفعات ويذرنج » يا ايلين ، ولم اتخلف عن الذهاب إلى هناك يوما واحدا منذ مرضك ، إلا ثلاث مرات قبله ، ومرتين بعد أن شفيت وغادرت حجرتك .. كنت أمنح « مايكل » الكتب والصور ليعد لى « مينى » كل مساء ، وليعيده إلى الاسطبل بعد عودتى .. ولكن لا توجهى إليه لوما أو تأنيبا هو الآخر .. وكنت أصل إلى المرتفعات فى السادسة والنصف ، وأظل بها عادة حتى الثامنة ، فأعود مسرعة أركض بجوادى ركضا .. ولم يكن ذهابى إلى هناك بحثا عن التسلية والترفيه لنفسى ، بل لقد كنت كثيرا ما أقضى وقتى هناك

مهمومة مكروبة !.. كنت لا أحس بالسعادة إلا بين الحين والحين ، لعلها لم تكن تعدو مرة فى الأسبوع !.. وفى بادىء الأمر ، كنت أتوقع أن القى عناء شديدا فى إقناعك بالسماح لى بالوفاء بوعدى للينتون ، إذ كنت قد وعدته ، عند انصرافنا ، بزيارته فى اليوم التالى .. ولكنى نجوت من هذا العناء عندما لزمت فراشك فى الطابق العلوى فى الغداة .. وبينما كان مايكل يثبت قفل باب الحديقة بعد إصلاحه ، عصر ذلك اليوم ، أخذت منه المفتاح وأخبرته كيف يتوق ابن عمتى إلى زيارتى له ، لأنه مريض لا يستطيع الحضور إلى « الجرانج » ، وكيف أتوقع من والدى معارضة شديدة لذهابى .. ثم مضيت فى مساومته حول إعداد المهر لى .. وكان شغوفا بالقراءة ، ويفكر فى ترك خدمتنا قريبا ليتزوج .. وهكذا عرض على أن يقوم بكل ما أطلبه منه إذا أعرته كتبا من المكتبة .. ولكنى فضلت أن أعطيه من كتبى الخاصة ، فكان رضاه وسروره بها يفوق كل حد ..

وفى الزيارة الثانية ، بدا لى لينتون نشيطا فى خير حالاته ، وأعدت لنا زيللا (مدبرة منزلهم) حجرة نظيفة ونارا تتلظى فى المدفأة ، ثم أخبرتنا بأن جوزيف خرج ليشترك فى صلاة جامعة ، وأن هيرتون صحب كلابه إلى الخارج ـ وسمعت فيما بعد أنه كان يسرق الطيور من غابتنا ـ ومن ثم يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا .. وأحضرت لنا بعض النبيذ الدافىء وكعك الزنجبيل ، وأبدت نحونا عطفا وطيبة بالغين .. وجلس لينتون فى المقعد الكبير ذى الوسادتين ، بينما اخترت لجلوسى

مقعدا هزازا صغيرا بجوار المدفأة ، ومضينا نضحك ونتبادل أحاديث المرح والسرور . ولم يعوزنا شىء من فنون الحديث ، ورحنا نرسم خطط ما سوف نفعله فى الصيف والأماكن التى سنذهب إليها .. وما بى من حاجة إلى ترديد ذلك على مسامعك لأنك ستسمينه سخفا ولغوا ..

ومع ذلك كدنا نتشاجر ذات مرة .. فقد قال أن أمتع وابهج طريقة لقضاء يوم حار من أيام شهر يوليو ، هى أن يرقد المرء من الصباح حتى المساء فوق تل مغطى بالعشب وسط البرارى ، والنحل يطن حوله وسط أكمام الزهور ، سعيدا هانئا ، والقنابر تحلق فوق رأسه تصدح بأنغامها الشجية ، بينما السماء الزرقاء والشمس الساطعة تملآن الفضاء حوله إشراقا وضياء لا تفسده السحب .. تلك كانت فكرته المثالية عن سعادة لا تطاولها سعادة الجنان .. أما قصارى السعادة فى رأيى فكانت التأرجح بين اغصان شجرة خضراء ، لأوراقها حفيف لا ينتهى .. تهب عليها ريح غربية ، وترفرف فوقها سحب بيضاء سريعة متتابعة ، وتتدفق الأنغام حولها من كل جانب ، لا من القنابر فحسب ، بل من كل أنواع الطيور الصداحة ، وتتراءى البرارى من بعد وهى تتكسر وديانا واخاديد باردة معتمة ، تتخللها قباب عظيمة من الحشائش الطويلة التى تتهدل تحت أنامل النسيم أمواجا بعد أمواج ، ويمتلىء الفضاء حولها بخشخشة الشجر وخرير جداول الماء ، والدنيا كلها من حولى يقظى ترقص فى وحشية على أنغام من الطرب والسرور .. كان كل ما يريده هو أن يرقد

فى نشوة من الهدوء والدعة ، وكانت كل أمنيتى أن أتلألأ وأرقص فى عيد عظيم من أعياد الدنيا .. قلت له إن عالمه ليس إلا عالما مسجى بين الحياة والموت ، فقال لى إن عالمى ليس إلا عالما ثملا مخمورا !.. قلت إننى فى عالمه لا البث أن يدركنى النعاس ، فقال إنه فى عالمى لا يلبث أن يضحى مقطوع الأنفاس !.. ثم أخذته نوبة من القحة وسلاطة اللسان ، ولكنى رحت الاينه حتى اتفقنا فى النهاية على أن يجرب كلانا كلا العالمين ، عندما يحين موعد الطقس الملائم ، وعندئذ تبادلنا القبلات وعدنا صديقين ..

وبعد ان ظللت جالسة فى سكون زهاء ساعة ، تطلعت حولى إلى الحجرة العظيمة بأرضيتها العارية الجميلة ، وفكرت فى روعة اللعب فيها إذا رفعنا المائدة .. فطلبت إلى لينتون أن يدعو زيللا لمساعدتنا ، ولتلعب معنا لعبة (الاستغماية) ، فتحاول أن تمسك بنا وهى معصوبة العينين ، كما اعتدت أن تلعبى معنا يا إيلين .. فلم تطب له هذه اللعبة ، وزعم أن ليس فيها متعة أو تسلية .. ولكنه رضى أن يلعب معى بالكرة. ووجدنا كرتين فى الصوان وسط كومة من اللعب القديمة و (النحل) والمضارب والسهام المريشة .. وكان على إحدى الكرتين حرف «ك» وعلى الأخرى حرف «هـ» ، فرغبت فى أخذ الأولى لعلمى أن الحرف المنقوش عليها يرمز إلى «كاثرين» ، وان الأخرى قد ترمز إلى اسمه هو أى « هيثكليف » ، ولكن حشو كرته كان يبرز من ثقب فيها ، فلم ترق فى نظره !.. وظللت اغلبه باستمرار ، فتملكه الغضب من جديد ، واخذ

يسعل ، ثم عاد إلى مقعده .. ومع ذلك ، فقد عاد إلى مرحه وانبساطه فى تلك الليلة بغير عناء ، مأخوذا بسحر أغنيتين أو ثلاث من أغنياتك الجميلة يا إيلين .. وعندما اضطررت إلى الانصراف ، راح يرجونى ويتوسل إلى بأن أعود إليه فى المساء التالى ، فوعدته بذلك .. وعاد بى « مينى » إلى الدار فى خفة الهواء وسرعة الريح !.. وقضيت ليلتى حتى الصباح احلم « بمرتفعات ويذرنج » وبابن عمتى اللطيف المحبوب !

ولازمنى الاكتئاب فى اليوم التالى لسببين : أولهما ان المرض اشتد عليك ، والثانى لأنى كنت أود أن يعرف أبى بالأمر ، ويوافق على رحلاتى هذه .. فلما فرغت من تناول الشاى ، كان القمر قد أشرق بضيائه الساحر الجميل ، وسرعان ما تبدد اكتئابى عندما ركبت ذاهبة إلى هناك .. كنت أمنى نفسى بقضاء أمسية سعيدة أخرى ، ولكن الذى زاد من ابتهاجى هو أن لينتون كان سيقضى بدوره أمسية سعيدة .. ودخلت بالجواد إلى حديقة المنزل ، وهممت بأن ادور حوله إلى الباب الخلفى ، عندما قابلنى ذلك الشخص هيرتون ، وامسك بعنان جوادى ، وطلب إلى أن ادخل من الباب الأمامى .. وراح يربت على عنق « مينى » ويقول انه جواد جميل اصيل ، وكان يبدو كأنما يسعى وراء دفعى إلى تبادل الحديث معه .. ولكنى لم أقل له أكثر من أن يترك الجواد وشأنه ، حتى لا يركله .. فأجاب بلهجته السوقية وهو يفحص سيقان الجواد بأنظاره فى ابتسام : « لو فعل ذلك فلن يحدث أذى كبيرا » .. وكنت أكاد اميل إلى جعل الجواد يجرب فيه

ذلك !.. ومهما يكن من أمر فانه مضى أمامى ليفتح الباب ، وما أن وضع يده على المزلاج حتى تطلع إلى النقوش التى تعلوه(١) ، وقال فى مزيج أبله من الارتباك والزهو معا :

ـ أستطيع الآن أن أقرأ هذه الكتابة يا مس كاثرين !

فهتفت قائلة :

ـ ما شـاء الله !.. ما أبدع ذلك !.. أسمعنا إذن من فضلك .. لقد ازددت ذكاء وحذقا كما يبدو !

فأخذ يتهجى الحروف ، ويتمشدق بالمقاطع ، حتى قرأ « هيرتون ايرنشو » .. ولكنه ما لبث أن سـكت فجأة .. فلما طال صمته قلت أستحثه مشجعة :

ـ والأرقام ؟

ـ لا أستطيع قراءتها بعد !

فقهقهت ضاحكة فى جذل ، وصحت به :

ـ آه يا بليد !!

فراح الغبى يحملق فى وجهى وقد حامت حول شـفتيه تكشيرة واسعة ، وتجمعت حول عينيه جهامة وعبوس ، كأنما أخذته الحيرة فيما إذا كان يجدر به أن يشاركنى المرح ، وفيما إذا كانت كلماتى تنم عن مجرد ملاحظة ودية ، أم أنها ـ كما كانت فى الحقيقة ـ تنم عن الازدراء والاحتقار ..

---

(١) يذكر القارىء أن البـاب الرئيسى تعلوه نقوش تقرأ « هيرتون ايرنشو » وتحت هذا الاسم نقشت سنة بناء الدار « ١٥٠٠ » .

وحسمت شكوكه ، بأن استعدت فجأة رصانتى ، وسألته ان يمضى لشأنه لأننى قدمت لزيارة لينتون ، لا لرؤيته هو .. فرأيت وجهه ، فى ضوء القمر ، تعلوه حمرة قانية . وأبعد يده عن المزلاج ، ثم انصرف متواريا عن أنظارى وهو صورة مجسمة للزهو المهيض .. وأحسبه قد خال نفسه سيدا مهذبا مصقولا مثل لينتون لمجرد أنه عرف كيف يتهجى اسمه !.. فخاب أمله إذ وجدنى لا أقدر له هذه المنزلة ..

قالت مسز دين تتابع حديثها : فقاطعتها قائلة :

ـ مهلا يا عزيزتى مس كاثرين .. اننى لن الومك أو اؤنبك ، ولكنى لا أحب مسلكك هذا .. فلو انك ذكرت ان هيرتون هو ابن خالك مثلما كان السيد هيثكليف ابن عمتك ، لأدركت مبلغ تجنبك الصواب بمسلكك وتصرفك على هذا النحو .. وعلى الأقل فان طموحه إلى مجاراة لينتون وتطلعه إلى ان يكون مهذبا مصقولا مثله ، أمر كان يستحق منك الاعجاب والاطراء .. ولعله لم يرد تعلم القراءة لمجرد رغبته فى التفاخر ، فلست اشك فى انه خجل عندما عيرته بجهله ، فاراد ان يداوى هـذا الجهل ، ويستجلب غبطتك ورضـاك .. لذلك فان السخرية من جهوده المتواضعة إنما تنم عن سوء الأدب !.. ولو انك ربيت فى مثل ظروفه ، فهلا كنت نشأت أقل تهذيبا وأكثر همجية ؟.. لقد كان وهو طفل صغير لا يقل عنك نشاطا وذكاء ، وانه ليؤلمنى ويؤذى شعورى أن يلقى الآن مثل هذا الازدراء والاحتقار ، لا لسبب إلا لظلم ذلك السافل هيثكليف له ، وسقيه إياه كؤوس الهوان والمذلة ..

فدهشت لحماستى وغيرتى ، وصاحت قائلة :

ـ حسنا يا إيلين .. لا أحسبك سوف تبكين من أجله !.. اصبرى حتى تسمعى إذا كان قد حفظ الحروف الأبجدية مرضاة لى ، وإذا كان ذلك الوحش يستحق المعاملة فى أدب ورقة !.. لقد دخلت إلى حجرة الجلوس ، فوجدت لينتون راقدا فوق الأريكة ، وقد هم بالنهوض للاقاتى وهو يقول :

ـ إننى مريض الليلة يا حبيبتى كاثرين ، فعليك أن تتولى الحديث كله ، وتدعينى أصغى إليك فحسب .. تعالى واجلسى بجانبى !.. لقد كنت واثقا من أنك ستفين بوعدك ، وسوف تعدينني الليلة أيضا بالحضور غدا ..

وكنت قد أدركت أننى لا ينبغى لى أن أضايقه أو أعانده ، لأنه كان سقيما .. فرحت أتحدث إليه فى رفق وهدوء ، لا أوجه إليه أى سؤال ، متجنبة كل ماقد يثيره .. وكنت قد أخذت له معى بضعة من أجمل كتبى ، فطلب إلى أن أقرأ له قليلا فى أحدها ، وكنت على وشك أن ألبى رغبته ، عند ما دفع ايرنشو الباب فى عنف ، وقد جمع بين سموم الحقد والنية السيئة المبيتة ، فتقدم نحونا مباشرة ، وأمسك بذراع لينتون وجذبه فطوح به من فوق الأريكة وهو يقول فى صوت مدغوم من شدة الغضب والانفعال ، وقد انتفخت أوداجه وبدا ثائرا شديد الهياج :

ـ هيا اذهب إلى حجرتك !.. وعليك أن تأخذها إلى هناك مادامت تحضر لرؤيتك .. انك لن تحرمنى من الجلوس هنا ، فاذهب إلى الشيطان أنت وهى !

وانطلق يرمينا بأقذع السباب ، ولم يدع للينتون الفرصة لإجابته ، بل سحبه إلى باب المطبخ ودفعه إليه ، ثم رفع قبضته فى وجهى بينما كنت أتبع لينتون ، حتى ظننت أنه يتوق إلى أن يصرعنى أرضا !.. وتملكنى الفزع لحظة ، فسقط أحد الكتب من يدى ، وعندئذ ركله بقدمه ورائى وهو يوصد خلفنا باب المطبخ .. وفى تلك اللحظة سمحت ضحكة خبيثة مجلجلة تنبعث من جانب الموقد ، فاستدرت ورأيت ذلك الشيخ البغيض جوزيف واقفا يفرك يديه المقددتين ، وهو يهتز طربا ويقول :

ـ كنت واثقا من انه سيطردكما .. فهو فتى عظيم ، سرت فى عروقه روح أجداده العظيمة .. إنه يعلم ، مثلما أعلم ، منذا الذى كان يجب ان يكون السيد هنا .. ها .. ها ها !.. لقد أفزعكما تماما .. ها .. ها .. ها !

ولم أبد اكتراثا لسخرية الوغد العجوز ، وسألت ابن عمتى:

ـ أين يجب أن نذهب الآن ؟

ولكن لينتون كان شديد الامتقاع يرتعد غضبا وانفعالا .. وصدقينى يا ايلين أنه لم يكن جميلا وقتئذ .. كلا .. بل كان يبدو لى مخيفا مفزعا .. لأنه وجهه النحيل وعينيه الواسعتين كانت جميعا تتقلص فى غضب جنونى مغلول .. فأمسك بمقبض الباب وراح يهزه بكل ما وسعته قوته ، وكان موصدا من الداخل ، وهو يصيح بصوت حاد :

ـ إذا لم تفتح لى الباب فسوف أقتلك !.. إذا لم تفتح

لى الباب فسوف أقتلك ! .. أيها الشيطان .. أيها الشيطان! .. سوف أقتلك !.. سوف أقتلك !

فجلجلت قهقهة جوزيف الساخرة من جديد ، وراح يقول :

ـ من شابه أباه !.. انه ابوه تماما !.. لقد جمعنا السلالتين حولنا .. واحد هنا وواحد هناك ! .. لا تخش شيئا يا هيرتون ، يا بنى ، ولا تخف منه فانه لا يستطيع ان ينالك ..

وامسكت بيدى لينتون وحاولت ان أجذبه بعيدا عن الباب ولكنه كان يصرخ صراخا مقيتا جعلنى لا اجرؤ على المضى فى محاولتى .. وأخيرا اختنقت صيحاته فى نوبة مروعة من .. فجريت إلى الفناء وقد غشيت نفسى من الرعب ، وناديت السعال ، وما لبث أن تدفق الدم من فمه وسقط على الأرض زيللا بأعلى صوت أستطعته .. وسرعان ما سمعتنى ، وكانت تحلب الأبقار تحت مظلة وراء صومعة الغلال ، فتركت ما فى يدها وهرعت إلى تسألنى عما هنالك .. وكنت مبهورة الأنفاس لا أستطيع النطق وشرح الأمر ، فاكتفيت بأن جذبتها نحو المطبخ ، ورحت انظر حولى باحثة عن لينتون ، فاذا بايرنشو قد ترك حجرة الاستقبال واتى ليرى آثار الشر الذى احدثه ، فرأيته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ويصعد به الدرج إلى الطابق العلوى .. فصعدت وراءه مع زيللا ، ولكنه اوقفنى عند قمة الدرج ، وقال اننى لا ينبغى أن أدخل الحجرة وراءهم ، وإنما يجب أن أعود إلى منزلى .. فصحت فيه : انه



فرأيته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ليصعد به الدرج الى الطابق العلوى ..

قتل لينتون ، وأن لابد لى من الدخول .. وعندئذ أوصد جوزيف باب الحجرة وقال انه لا يخلق بى أن ارتكب مثل هذه الحماقة ، وسألنى إن كنت أود أن اكون مجنونة مثل لينتون ؟ .. فظللت واقفة أبكى حتى ظهرت زيللا ثانية ، وأكدت لى انه حرى بأن يتحسن قليلا ، لو كف عن ذلك الصراخ وتلك الجلبة التى يحدثها ، ثم أخذتنى ، وهى تكاد تحملنى حملا ، إلى حجرة الجلوس ..

وصدقينى يا ايلين اننى كدت اقطع شعر راسى ، ومضيت ابكى وانتحب حتى غشيت عيناى ولم أعد ابصر شيئا .. وكان ذلك الوغد الذى تعطفين عليه بهذا القدر يقف تجاهى ، ويبيح لنفسه بين آن وآخر ان يطلب إلى السكون ، ولا يفتأ ينفى مسئوليته عما حدث .. وأخيرا انتابه الفزع من تأكيدى له باننى ساخبر ابى بما حدث ، وانه سوف يلقى فى السجن ثم يشنق ، فأجهش بالبكاء هو نفسه ، ثم انفلت مسرعا إلى الخارج ليخفى انفعاله واستخذاءه .. ومع ذلك فلم اتخلص منه تماما تلك الليلة .. فعندما انتهى الأمر بإرغامى على الرحيل ، وابتعدت عن المنزل نحو ثلاثمائة ياردة ، انبعث فجأة امامى من الظلام على أحد جانبى الطريق ، وأمسك بزمام جوادى « مينى » وهو يقول لى :

ـ إننى شديد الحزن يا مس كاثرين .. ولكن ، فى الوقت نفسه ، كان من المؤلم لى ..

فعاجلته بضربة من سوطى اصابته بقطع دام فى وجهه ، وجعلتنى أظنه ربما قتلنى بسببها .. ولكنه ترك عنان الجواد،

وانطلق يهدر بألفاظ السباب كالرعد القاصف ، فأطلقت العنان للجواد وعدت إلى المنزل وقد أوشكت أن أفقد حواسى ..

ولم أذهب إلى حجرتك لأتمنى لك ليلة طيبة ، كما لم أذهب إلى « مرتفعات ويذرنج » فى الليلة التالية .. كنت شديدة الاشتياق إلى الذهاب ، ولكنى كنت مهتاجة الأعصاب إلى درجة غريبة .. كنت أحيانا أتوجس شرا وأخشى أن أسمع بموت لينتون ، وكنت أحيانا أرتجف فزعا لمجرد التفكير فى الالتقاء بهيرتون .. وعاودتنى شجاعتى فى اليوم الثالث ، أو الأحرى أن تقولى اننى لم أطق الصبر على مزيد من الحيرة والشك ، فتسللت ماضية إلى هناك مرة أخرى .. ذهبت فى الخامسة ، ماشية على قدمى ، وقد خيل إلى اننى أستطيع تدبير الأمر بحيث أتسلل إلى المنزل ، ثم إلى حجرة لينتون ، دون أن يرانى أحد .. ولكن الكلاب كشفت امرى واذاعت نبأ مقدمى ، فاستقبلتنى زيللا قائلة : « ان الفتى يتحسن على نحو بديع » . ثم قادتنى إلى حجرة صغيرة أنيقة مفروشة بالسجاد ، امتلأ قلبى بسرور صامت عندما شهدت فيها لينتون راقدا فوق اريكة صغيرة ، يطالع كتابا من كتبى .. ولكنه لم يشأ أن يخاطبنى أو ينظر إلى خلال ساعة كاملة يا ايلين ! .. كان وقتئذ فى حالة تعسة من الشراسة وسوء الخلق .. والذى زاد من دهشتى وعقل لسانى عن الكلام ، انه عندما فتح فمه لم يفعل إلا لينطق بتلك الفرية المروعة ، وهى اننى كنت السبب فى ذلك الشجار ، وأن هيرتون لا لوم عليه ولا تثريب !.. وإذ وجدتنى عاجزة عن الإجابة حتى

لا أنفجر باكية ، فقد نهضت ومشيت خارجة من الحجرة .. فأرسل خلفى ذلك النداء الخافت : « كاثرين » !.. ولكن لم يكن فى حسبانه وتقديره أن يكون ردى عليه ما فعلته . إذ ضربت بندائه عرض الحائط ولم التفت إليه ، وانصرفت لتوى ..

وكان اليوم التالى هو المرة الثانية التى بقيت فيها فى المنزل ، وقد كان يستقر فى عزمى الا ازوره بعد ذلك قط .. ولكنى لقيت من الشقاء فى الذهاب إلى الفراش والنهوض عنه دون أن أسمع عنه شيئا قط ، ما جعل عزمى يتبدد فى الهواء حتى قبل أن يستقر تماما .. لقد بدا لى مرة أن من الخطأ القيام بتلك الرحلة ثانية ، أما الآن فقد بدا لى أن الخطأ كل الخطأ إنما هو فى الامتناع عنها .. وحضر إلى مايكل السائس ليسألنى هل يسرج « مينى » ، فأجبته بالإيجاب ، وكنت أعد نفسى والمهر يحملنى فوق التلال ، قائمة بواجب لا مناص لى من أدائه .. وقد اضطررت إلى المرور أمام النوافذ الأمامية فى طريقى إلى الفناء ، إذ لم يكن ثمة جدوى من إخفاء حضورى .

ورأتنى زيللا أسير نحو البهو ، فقالت : « إن السيد الصغير فى حجرة الجلوس .. »

ومضيت إلى تلك الحجرة ، فاذا ايرنشو هناك كذلك . ولكنه غادرها على الفور .. وكان لينتون يجلس فى المقعد الكبير مغمض العينين ، شبه نائم .. فسرت نحو المدفأة ، ثم بدأت أقول فى لهجة رصينة ، عنيت بأن يبدو فيها صدق ما أقوله إلى حد ما :

ـ هذا آخر لقاء بيننا يا لينتون ، ما دمت لا تميل إلى ، وما دمت تظن أننى لا أحضر إلا بقصد الإساءة إليك ، وتزعم أننى أفعل ذلك فى كل مرة .. فليقل كل منا للآخر «وداعا» ، وعليك أن تخبر مستر هيثكليف بأنك لا تضمر أية رغبة فى رؤيتى ، وأن عليه أن يكف عن اختلاق المزيد من الأكاذيب عن هذا الأمر ..

فأجاب :

ـ اجلسى يا كاثرين ، واخلعى قبعتك .. انك تلقين من السعادة أكثر مما ألقاه ، ولذلك ينبغى لك أن تكونى أفضل منى وأحسن خلقا .. إن أبى ينسب إلى من العيوب ، ويظهر نحوى من الازدراء ما يكفى لأن يجعل من الطبيعى أن يتملكنى الشك فى نفسى !.. إننى اشك فيما إذا لم أكن تافها حقيرا بالقدر الذى لا يفتأ ينعتنى به ؟.. وعندئذ أشعر بالحنق والمرارة ، فامقت الناس جميعا .. إننى اكاد أكون دائما تافها حقيرا ، سيىء الخلق ، خبيث النفس .. وفى وسعك ، إذا شئت ، أن تقولى لى وداعا .. فأنت بذلك سوف تتخلصين من شىء يزعجك وتضيقين به .. ولكنى لا أريد منك يا كاثرين إلا أن تكونى عادلة معى .. وصدقينى اننى اود لو اننى كنت فى مثل رقتك ، وحنانك ، وطيبتك .. أود ذلك بكل قواى وعن رضى واختيار ، دون أن أجاريك فى سعادتك وصحتك .. وصدقينى ان طيبتك معى ورفقك بى قد جعلنى احبك حبا عميقا ، اكثر مما لو كنت قد نلت حبك عن جدارة

واستحقاق .. ومع اننى لا أستطيع ، وليس فى قدرتى ، أن اخفى عنك طبيعتى المشاكسة ، فاننى أشعر بالأسف من ذلك ، واندم عليه .. وسوف أظل آسفا نادما حتى ألفظ أنفاسى الأخيرة !

أحسست بانه يقول الحقيقة ، وأحسست باننى يجب أن اصفح عنه .. ومع أنه سوف يتشاجر معى ، فى اللحظة التالية ، فان من واجبى أن أمنحه المزيد من الصفح والتسامح .. وعقد الصلح بيننا ، ولكن بمداد من الدموع ظللنا نذرفه معا بقية الوقت الذى مكثته ، وإن لم يكن كله دمع الحزن والأسف !.. ومع ذلك فقد اسفت لأن لينتون كانت له هذه الطبيعة المعوجة .. فانه لن يريح أصدقاءه قط ، لا ولن يريح نفسه !

وكنت اذهب معه إلى البهو دائما ، منذ تلك الليلة ، لأن اباه عاد من رحلته فى اليوم التالى .. وفى تلك المدة كلها ، لم نقض من الأمسيات السعيدة المرحة المليئة بالأمل إلا ثلاثا !.. أما باقى زياراتى فكانت جميعها كئيبة مليئة بالهموم ، بين أنانيته ومشاكسته حينا ، وبين أوجاعه وأسقامه أحيانا .. ولكنى تعلمت أن أحتمل الأولى بمثل الصبر والأناة اللذين أحتمل بهما الثانية .. وكان مستر هيثكليف يتجنبنى عامدا ، فلم أره طوال هذه المدة إلا مرة واحدة .. فقد ذهبت يوم الأحد الماضى مبكرة عن عادتى ، فسمعته يسلق لينتون بألسنة حداد على مسلكه معى فى الليلة السابقة وهو شىء لا أدرى كيف عرفه ، إلا أن يكون يسترق السمع

علينا .. كان مسلك لينتون ، فى الحقيقة والواقع ، مثيرا يبعث على الحنق والسخط .. ولكن ، مهما يكن من امر ، فذلك أمر لا يخص أحدا سواى .. وهذا ما قلته لمستر هيثكليف عندما اقتحمت الحجرة وقطعت عليه محاضرته القاسية .. وعندئذ انفجر مقهقها ، ثم غادر الحجرة وهو يبدى سروره لأننى نظرت إلى الأمر هذه النظرة .. ومنذ تلك الليلة طلبت إلى لينتون أن يجعل تذمره وسخطه المرير همسا !

وها أنت قد علمت كل شىء الآن يا ايلين .. ولن يمكن منعى من الذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » إلا على انقاض سعادة شخصين ، فى حين أنك لو وقفت موقفا سلبيا ولم تفضى لأبى بهذا السر ، فان ذهابى لن يضير أحدا أو يسىء إليه .. إنك لن تخبريه ، أليس كذلك ؟.. ولو فعلت لكان عملك قاسيا خلوا من الرحمة !

فاجبتها :

ـ إن الأمر يحتاج إلى دراسة وتفكير يا مس كاثرين ، وسوف أقطع برأى فيه غدا .. أما الآن ، فسوف أتركك لتستريحى ، وأذهب لأمعن الفكر فيه ..

وقد فكرت فيه حقا ، ولكن بصوت مسموع أمام سيدى.. فما كدت أغادر حجرتها حتى مضيت إليه قدما ورويت له القصة بحذافيرها ، لم أغفل منها سوى أحاديث الفتاة مع

ابن عمتها ، وسوى ذكر هيرتون ، فلم يجر اسمه على لسانى بكلمة .. واستبد القلق والكرب بمستر لينتون ، أكثر مما اظهره أمامى .. وفى الصباح علمت كاثرين بخيانتى لها وإفشاء سرها ، وعلمت كذلك بأن زيارتها الخفية لابن عمتها قد قضى عليها نهائيا .. وعبثا راحت تبكى وتحتج على هذا القرار ، وتتوسل إلى ابيها أن يشفق على لينتون ، فكان كل ما نالته منه لتهدئتها ان وعدها بأن يكتب إلى لينتون ويصرح له بالحضور إلى « الجرانج » كلما شاء ، ولكن عليه ان يفهم بجلاء أنه ما من سبيل لذهاب كاثرين إلى « مرتفعات ويذرنج » بعد ذلك .. ولعله لو علم حقيقة حالة ابن أخته النفسية والصحية ، لوجد من الملائم ان يضن عليها حتى بهذه الترضية اليسيرة ..

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قالت مسز دين تتابع رواية القصة :

وقعت هذه الحوادث ، ياسيدى ، فى الشتاء الماضى ، فلم يكد يمر عليها عام بأكمله .. وما خطر لى على بال ، فى الشتاء الماضى ، اننى سوف أجلس بعد انقضاء اثنى عشر شهرا ، إلى شخص غريب عن الأسرة لأسليه بقصص أفرادها .. ومع ذلك فمن يدرى إلى متى ستظل غريبا عنها ؟ .. انك من الشباب وصغر السن بحيث لا يخلق بك ان تظل دائما تعيش وحدك فى عزلة وانطواء .. ثم انه ليخيل إلى ، على وجه ما ، انه ما من أحد يرى كاثرين لينتون ويستطيع ان يقاوم حبها فى نفسه !.. انت تبتسم الآن ، ولكن لماذا يبدو عليك الاهتمام والحيوية كلما اتكلم عنها ؟ .. ولماذا طلبت إلى أن أعلق صورتها فوق المدفأة فى حجرتك ؟.. ولماذا ؟

فصحت بها مقاطعا :

ـ كفى ياصديقتى الطيبة !.. قد يكون من المحتمل جدا اننى سوف أقع فى حبها ، ولكن هل يمكن أن تحبنى هى ؟.. اننى أشك فى ذلك إلى حد بعيد يجعلنى لا أجرؤ على المخاطرة بهدوئى وسكينتى جريا وراء الاغراء .. ثم اننى لست من هذه الديار .. اننى من العالم الزاخر بالعمل وبالناس ، ولا بد لى من العودة إلى أحضانه .. فهيا امضى فى حديثك ، وأخبرينى هل أطاعت كاثرين أوامر والدها ؟

فاستتلت مديرة المنزل تقول :

ـ نعم .. فان حبها له كان لا يزال أقوى عاطفة تغمر قلبها .. وقد تحدث إليها أبوها فى غير غضب أو انفعال .. بذلك الحنان العميق لشخص يوشك أن يترك كنزه وسط المخاطر والأعداء ، حيث تظل كلماته الخالدة هى المعين الوحيد الذى يمكن أن يخلفه لها .. ومع ذلك فقد سألنى بعد أيام قليلة :

ـ شد ما أود أن يكتب لنا ابن أختى أو يزورنا ، يا ايلين ! .. ولكن أخبرينى برأيك فيه ، بصراحة وإخلاص .. هل تحسنت حالته ؟.. أو هل هناك أمل فى تحسنها عندما يغدو رجلا ؟

ـ إنه مفرط فى الرقة والضعف يا سيدى ، ولا اظنه يعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال !.. ولـكنى أستطيع ان أؤكد لك شيئا واحدا ، هو انه لا يشبه أباه فى شىء .. ولو شاء سوء الطالع أن تتزوج مس كاثرين منه ، فلن يتمرد عليها أو يخرج عن طاعتها إلا إذا كانت شديدة التسامح معه إلى حد البلاهة ! .. وعلى اية حال ، فان أمامك ، يا سيدى ، فسحة من الوقت لتزداد معرفة به ولترى إن كان يصلح زوجا لها ، فما زالت أمامه أعوام أربعة ـ أو تزيد ـ حتى يبلغ سن الزواج ..

فتنهد ادجار ، ومشى إلى النافذة متثاقلا ، ثم راح يتطلع بأنظاره ناحية كنيسة « جيمرتون » .. وكنا وقتئذ بعد ظهر أحد الأيام التى ينتشر فيها الضباب ، ولكن شمس فبراير كانت ترسل ضياء خافتا بالقدر الذى استطعنا معه أن نميز

شجرتى الشربين الباسقتين فى فناء الكنيسة ، والقبور المتناثرة المتباعدة ..

وما لبث ان راح يقول فى صوت خفيض، كأنه يناجى نفسه :

ـ لقد كنت كثيرا ما ابتهل إلى الله أن يعجل بما لا بد من وقوعه ، ولكنى بدأت الآن اخشاه وانفر من مقدمه !.. وكانت ذكرى الساعة التى هبطت فيها من ذلك التل البعيد عريسا يوم زفافى ، اقل حلاوة وعذوبة من تفكيرى فى توقع حلمى إليه عاجلا ، بعد شهور قليلة ـ أو ربما أسابيع ـ لأوضع داخل جوفه الموحش .. اننى كنت سعيدا كل السعادة ، يا ايلين ، مع صغيرتى كاثى ، فقد كانت خلال ليالى الشتاء وايام الصيف أملا زاخرا بالحياة يتواثب إلى جانبى .. كانت سعادتى بها لا تعادلها إلا سعادتى فى الاستغراق فى التأمل وحدى بين هذه الأحجار ، تحت تلك الكنيسة العتيقة ، او راقدا ـ خلال ليالى يونيه الطويلة ـ بين الحشائش النامية فوق قبر امها ، وكلى لهفة وحنين إلى الساعة التى اوضع فيها داخل هذا القبر بدورى .. فماذا أستطيع أن افعل من أجل كاثى ؟ .. وكيف ينبغى أن أتركها ؟.. إننى ما كنت لأبالى لحظة واحدة بأن لينتون هو ابن هيثكليف ، ولا بأنه سوف يأخذها منى ، لو علمت انه قادر على تعزيتها عن فقدى وتهوين المصاب عليها .. وما كنت لأبالى كذلك بأن هيثكليف قد حقق كل اهدافه وافلح حتى فى سلبى آخر ما لدى من أسباب السعادة .. اما أن يكون لينتون شخصا تافها غير جدير بها ـ مجرد اداة ضعيفة فى يد أبيه ـ فعندئذ لا استطيع

على الأمر سكوتا ، ولا أسمح بأن أتركها له .. ومهما يكن تصرفى من القسوة فى تحطيم روحها المرحة النشيطة ، فلا بد من أن أثابر على جعلها حزينة مكتئبة أثناء حياتى ، وان أخلفها وحيدة عند مماتى .. آه ! .. يا للعزيزة الغالية !.. اننى لأفضل ان أسلمها بين يدى الله ، وأوسدها الثرى قبلى !

فأجبته قائلة :

ــ دع الله يتولاها برعايته يا سيدى .. وإذا قدر لنا أن نفقدك يوما ــ لا سمح الله ــ فاننى بعنايته ورحمته سوف أكون لها الصديقة والناصحة حتى النهاية .. ان مس كاثرين فتاة طيبة ، لا أخاف عليها الوقوع فى الزلل عن عمد .. وان أولئك الذين يؤدون واجبهم يلقون دائما خير الجزاء أخيرا ..

وتقدم بنا الربيع ، ولكن سيدى لم يستكمل قواه ولم يستعد صحته ، مع أنه عاود القيام بجولاته فى الحديقة مع ابنته .. وكان ذلك فى حد ذاته فى رأيها ــ لقلة خبرتها ــ دليلا على نقاهته .. وكثيرا ما كانت وجنتاه تتوردان بحمرة قانية ، وعيناه تلتمعان فى بريق خاطف ، فأيقنت من تمام شفائه !

وفى عيد ميلادها السابع عشر ، لم يقم بزيارة المقبرة كعادته .. كان اليوم مطيرا ، فقلت له فى ملاحظة عابرة :

ــ لا ريب أنك لن تخرج الليلة ياسيدى ؟

ــ كلا .. سوف أؤجل زيارتى هذا العام قليلا ..

وكتب ثانية إلى لينتون معبرا عن رغبته الشديدة فى رؤيته .. ولو كان الفتى العليل فى حالة تسمح له بالحضور ،

لسمح له أبوه بالمجىء .. لا شك فى ذلك ولا ريب .. ولكن الذى حدث هو أنه ــ بناء على تعليمات أبيه طبعا ــ كتب إلى خاله خطابا يوحى بأن مستر هيثكليف يعارض فى زيارته « للجرانج » ، ويقول فيه أن ذكرى خاله الشفوق ما زالت تبعث السرور فى نفسه ، وبوده أن يلقاه فى إحدى جولاته ، يوما من الأيام ، ليسعد برؤيته ، وليتوسل إليه بنفسه كى لا يظل وابنة خاله مفترقين طويلا ، هذه الفرقة القاطعة ..

كان هذا الشطر من الخطاب بسيطا ساذجا ، وهو ــ على الأرجح ــ من إنشائه .. ولكن مستر هيثكليف كان يعلم أنه أفصح لسانا من ابنه فى الدفاع عن صحبته لكاثرين ، فقد مضى الخطاب يقول : « لست أرجو أن تسمح لها بزيارتى هنا .. ولكن هل قدر على أن أحرم رؤيتها إلى الأبد ، لأن والدى يمنعنى من الذهاب إلى منزلها ، وأنت تمنعها من زيارة بيتى ؟ .. فهلا صحبتها ، بين آن وآخر ، إلى طريق « المرتفعات » فتتيح لنا بذلك فرصة نتبادل فيها كلمات قليلة فى حضورك ؟ .. اننا لم نقترف ذنبا نستحق عليه هذا الفراق !.. وأنت نفسك لست غاضبا منى ، وليس لديك ــ كما تقول ــ ما يثير حقدك على وكراهيتك لى !.. فاكتب لى ، يا خالى العزيز ، رقعة رحيمة غدا ، واسمح لى بأن ألقاكما فى أى مكان تختاره « ثرشكروس جرانج » .. وفى يقينى أن لقاء بينك وبينى سوف يقنعك بأننى لست على شىء من أخلاق أبى !.. بل إنه هو نفسه يؤكد أننى ابن أختك أكثر من أن أكون ابنه !.. ومع أن لى أخطائى التى تجعلنى غير جدير بكاثرين فانها قد صفحت عنها .. وعليك أن تصفح عنها

بدورك ، من أجل خاطرها !.. وقد سألتنى عن صحتى .. انها أحسن حالا الآن.. ولكنى طالما بقيت محروما من الأمل ، مقضيا على بالوحدة التعسة ، أو بمعاشرة أولئك الذين لم يحبونى ، ولن يحبونى قط ، فمن أين لى أن أكون سعيدا ، أو تتقدم صحتى بخطى حثيثة ؟ »

وعلى الرغم من حب ادجار للغلام ورثائه له ، فانه لم يستطع تلبية هذا الرجاء ، لانه لم يكن قادرا على الخروج فى صحبة كاثرين .. فكتب إليه أنهم ربما استطاعوا اللقاء فى الصيف ، ولكنه يود منه فى الوقت نفسه أن يستمر فى الكتابة إليه بين الحين والآخر ، ووعده بأن يقدم له ، فى خطاباته ، كل ما فى وسعه من النصح أو راحة البال ، لعلمه بمركزه العسير وسط عائلته .. وقد استجاب لينتون لرغبة خاله .. ولو أنه كان حرا غير مقيد فى كتابته ، لكان من الأرجح ان يفسد كل شىء بملء خطاباته بالشكوى والنحيب !.. ولكن أباه كان يرقبه بعين لا تغفل ، وكان يصر ـ بطبيعة الحال ـ على أن يرى كل كلمة يكتبها سيدى إليه أو يكتبها لينتون لخاله .. وهكذا فانه بدلا من أن يحشو خطاباته بآلامه وهمومه الشخصية العجيبة ، وهى التى لا تفتأ تتخذ فى أفكاره أعلى منزلة ، فقد راح يردد نغمة واحدة لا يحول عنها ، هى ذلك الحكم القاسى بأن يظل محروما من صديقته وحبيبته .. وكان يلمح فى رفق إلى واجب مستر لينتون بالسماح له بلقاء قريب ، وإلا خشى أن يكون قاصدا خداعه بالوعود المعسولة الجوفاء !

وكانت كاثى خير حليف له فى الدار ، فاستطاع كلاهما أخيرا أن يقنعا سيدى بالسماح لهما بنزهة يقومان بها معا مرة كل أسبوع ، راكبين أو ماشيين ، فى حراستى ، وفى البرارى القريبة من الجرانج .. فقد حل شهر يونيه وهو ما يزال يذوى ويزداد ضعفا .. وكان يدخر فى كل عام شطرا كبيرا من دخله لتكون منه ثروة لسيدتى الصغيرة ، ولكنه كان ، مع ذلك ، يحس رغبة طبيعية فى أن تستعيد منزل أجدادها ، أو على الأقل تعود إليه عما قريب .. وكان يعتقد أن أملها الوحيد فى تحقيق ذلك إنما هو بزواجها من وريثه .. فلم تكن لديه أية فكرة عن سير الفتى نحو النهاية بخطى حثيثة ، بل بأسرع مما كان يسير هو .. وما من أحد كانت لديه هذه الفكرة ، كما أعتقد .. فلم يدع الطبيب لزيارة « المرتفعات » قط ، ولم يكن بيننا من يرى هيثكليف الشاب حتى ينبىء بحالته .. أما أنا فقد بدأت ، من جانبى ، أعد تشاؤمى السابق كاذبا ، وتصورت أنه ، ولا ريب ، أصبح الآن يفيض صحة وانشراحا ، لكثرة ما ذكره عن الركوب والنزهة بين البرارى ، وما بدا من تلهفه على متابعة آماله نحو هدفه المنشود .. فلم أتصور البتة أن والدا يمكن أن يعامل ولده المحتضر بمثل ذلك الطغيان الرهيب وتلك القسوة الشريرة التى علمت فيما بعد أن مستر هيثكليف كان يعامله بها ، ليرغمه على هذه اللهفة المصطنعة .. وكان يضاعف جهوده وقسوته ، كلما بدت له خططه الجشعة ، وطمعه المجرد من الشعور ، يهددهما الموت بالفشل والانهيار !

* * *

الفصل السادس والعشرون

كان الصيف قد جاوز عنفوانه ، عندما وافق ادجار ـ كارها ـ على تحقيق رجائهما ، فخرجت وكاثرين راكبتين جوادينا فى أول رحلة لها للقاء ابن عمتها .. وكان يوما شديد الجهامة احتبس فيه الهواء ، وغامت الشمس ، غير أن السحب المرقطة الرقيقة لم تكن تنذر بالمطر .. وكان موعدنا عند علامة الارشاد الحجرية فى مفترق الطرق ، ولكننا عندما وصلنا إلى هناك وجدنا غلاما من الرعاة فى انتظارنا ، وقد وفد رسولا ليقول لنا :

ـ إن السيد لينتون موجود الآن على ذلك الجانب الآخر ناحية « المرتفعات » ، وسيكون عظيم الامتنان لكما إذا تقدمتما قليلا ..

فغمغمت قائلة :

ـ إذن فقد نسى السيد لينتون أول شرط من شروط خاله وأوامره .. لقد طلب إلينا أن نبقى فى حدود أرض « الجرانج » وها نحن نوشك على اجتيازها لأول وهلة ..

فأجابت رفيقتى :

ـ حسنا .. سوف ندير رؤوس الجياد عندما نصل إلى لينتون ، وسوف نجعل نزهتنا بذلك صوب المنزل !

فلما بلغنا مكانه ، وكان لا يكاد يبعد عن باب داره بأكثر من ربع ميل ، لم نجد معه جوادا ، فاضطررنا إلى الترجل ،

وتركنا جوادينا يرعيان الكلأ .. وكان راقدا فوق العشب ينتظر اقترابنا ، ولم ينهض من مضجعه حتى أصبحنا على بعد بضع ياردات منه ، وعندئذ مشى نحونا فى ضعف واسترخاء ، وكان يبدو شديد الشحوب بحيث لم أملك إلا أن أصيح فى عجب :

ـ ما هذا يا سيد هيثكليف ؟.. انك لست فى حالة تسمح لك بالتجول بين البرارى هذا الصباح .. شد ما تبدو مريضا !

وكانت كاثرين ترمقه فى دهشة وأسى .. وبدلت صيحة الفرح التى كانت توشك على أن تنطلق من شفتيها ، إلى صيحة قلق وانزعاج ، والتهنئة التى كانت توشك على أن توجهها إليه لهذا اللقاء الذى طال ارتقابه . إلى سؤال وجهته إليه فى لهفة وقلق عما إذا كان يجد نفسه أكثر سوءا من المعتاد .. فغمغم قائلا :

ـ كلا .. بل احسن كثيرا ..

وكان لاهث الأنفاس ، كثير الارتعاش ، وظل ممسكا بيدها كأنما كان بحاجة إلى الاستناد إليها ، بينما كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان ترمقانها بنظرات شاردة ، فى خجل وإعياء .. وكانت التجاويف التى كانت تحيط بهما قد أحالت تلك النظرة الواهنة ـ التى كانت لهما ذات يوم ـ إلى نظرة ضالة شاحبة ..

وعادت بنت خاله تقول فى إلحاح :

ـ ولكنك ازددت سوءا عما كنت عندما رأيتك آخر مرة ، وازددت هزالا ، و ..



فقاطعها فى عجلة :

ـ إننى متعب .. والجو اليوم حار لا يسمح لنا بالمشى ، فدعينا نجلس هنا .. ثم اننى أشعر بالمرض فى الصباح ، ويقول أبى ان ذلك يرجع إلى سرعة نموى !

فجلست كاثى دون أن يبدو عليها الاقتناع بما يقول ، أما هو فقد اضطجع بجانبها .. وارادت أن تجاهد فى سبيل إشاعة جو من المرح حولهما ، فقالت :

ـ إن هذه تشبه الجنة التى تنشدها .. فهل تذكر اليومين اللذين اتفقنا على ان نقضيهما فى المكان وعلى النحو الذى يراه كل منا أكثر بهجة وسرورا ؟.. إن هذه هى جنتك أنت بلا جدال ، لولا السحب التى تحجب وجه السماء ، ولو انها رقيقة لينة .. وذلك أفضل من وهج الشمس الساطعة .. ولكنك ، إذا استطعت ، سوف تركب معى فى الأسبوع القادم إلى حدائق « الجرانج » لترى جنتى انا ..

ولم يبد على لينتون ما يدل على تذكره شيئا مما كانت تتحدث عنه ، وكان من الواضح انه يلقى عناء عظيما فى احتمال أى نوع من الحوار ومتابعته .. كان عدم اهتمامه بالموضوعات التى طرقها ، وعجزه عن المساهمة بدوره فى الترويح عنها ، من الوضوح بحيث لم تستطع إخفاء امتعاضها وضيقها . فلقد أصاب شخصه ومسلكه تبدل شامل غريب غير واضح المعالم .. كانت المشاكسة التى تطمع فى الملاينة

إلى حد التدليل قد تركت مكانها فيه إلى نوع من البلادة والجمود وتراخى الشعور .. أصبح فيه القليل من ذلك الخلق المشاغب لطفل يعمد الاثارة والإغاظة حتى يلاطفه الناس ويتملقوه ، والكثير من تلك الكآبة والهموم المكبوتة التى تلازم شخصا عليلا لا يرجى له شفاء فيرفض العزاء والترويح ، ويعد طرب الآخرين ومرحهم إهانة له .. وقد تبينت كاثرين ـ كما تبينت ـ أنه يعتبر احتماله لصحبتنا عذابا وعقابا ، لا فضلا وعطفا ، فلم تتوان عن اقتراح الرحيل فى الحال .. وعلى غير ما كنا نتوقع ، أثار هذا الاقتراح لينتون من غيبوبته ، ودفع به إلى حالة غريبة من الانفعال ، وراح يتطلع نحو « مرتفعات ويذرنج » فى ذعر وهلع ، وهو يتوسل إلى كاثرين أن تبقى معه ولو نصف ساعة آخر .. فقالت :

ـ ولكنى اظن أنك سوف تكون أكثر راحة فى منزلك عنك فى الجلوس هنا .. ثم اننى لا أستطيع تسليتك اليوم ، كما أرى ، بقصصى واناشيدى وحديثى .. فقد أزددت عنى عقلا ورزانة خلال هذه الشهور الستة ولم تعد تتذوق لهوى ومرحى .. أما إذا كان فى استطاعتى أن أرفه عنك ، فانى مستعدة للبقاء عن طيب خاطر ..

فأجاب :

ـ بل امكثى حتى تنالى شيئا من الراحة .. ولا تظنى أو تقولى يا كاثرين اننى فى حالة بالغة السوء .. فالجو الثقيل والحرارة الشديدة هما اللذان يجعلانى ابدو متبلد الحس خاملا .. ثم اننى مشيت قبل مقدمك قدرا يفوق طاقتى .. فهل لك أن تخبرى خالى بأنى فى صحة لا بأس بها ؟

فقالت سيدتى الصغيرة متعجبة من إصراره على توكيد ما يبدو للعيان كذبا صراحا :

ـ سوف أخبره بأنك الذى تقول ذلك يا لينتون .. فانى لا أستطيع أن أشهد بأنك كذلك حقا ..

فاستطرد يقول متجاهلا نظراتها المتحيرة :

ـ وتعالى إلى هنا يوم الخميس القادم ثانية .. وقدمى لخالى شكرى وامتنانى على سماحه لك بالحضور .. شكرى الخالص العميق يا كاثرين .. و .. وإذا حدث أن قابلت والدى وسألك عنى ، فلا توحى إليه بأننى كنت معك صامتا بليد الفهم .. ولا تظهرى أمامه كئيبة منكسرة الخاطر ، كما تلوحين الآن .. انه سوف يغضب غضبا شديدا ..

فصاحت كاثرين وقد حسبت أنها ستكون هدف هذا الغضب :

ـ إننى لا أبالى بغضبه قط ..

فقال ابن عمتها ، مرتعدا :

ـ ولكنى أبالى به كثيرا .. فلا تثيريه ضدى يا كاثرين ، لأنه شديد القسوة والصرامة ..

فتدخلت سائلة :

ـ أهو قاس معك يا سيد هيثكليف ؟ .. هل أضجرته الرحمة وسئم التسامح ، فانقلبت كراهيته السلبية إلى إيجابية ؟

فنظر إلى لينتون ، ولكنه لم يجب .. ولبثت كاثرين جالسة بجانبه عشر دقائق أخرى ، كانت رأسه خلالها تسقط فوق صدره كشخص غلبه النعاس ، لا يتكلم ولا ينطق إلا بأنين مكتوم من الألم أو الاجهاد ، حتى ملت كاثرين تلك الجلسة فقامت تنشد العزاء فى البحث عن حبات التوت البرى ، وتشركنى معها فى ثمار بحثها ، دون أن تعرض شيئا منها عليه ، لأنها رأت بنفسها ان اية محاولة لتنبيهه لن تجدى إلا فى إضجاره وإغضابه !

وأخيرا همست فى أذنى قائلة :

ـ هل انقضى نصف الساعة يا ايلين ؟.. اننى لا أدرى لماذا ينبغى أن نبقى بعد ذلك ، فهو مستغرق فى النوم ، كما أن أبى يتعجل عودتنا إلى الدار ..

ـ حسنا .. لا يجب أن نتركه نائما ، فاصبرى حتى يستيقظ ، ودعى عنك هذه العجلة .. لقد كنت تتحرقين شوقا إلى الخروج للقائه ، وهانتذى أرى اشتياقك لرؤية لينتون المسكين قد تبخر وتبدد سريعا !

فأجابت كاثرين :

ـ ولكن لماذا طلب أن يرانى ؟.. لقد كان فى طباعه السابقة من سوء الخلق والمشاكسة احب إلى نفسى منه فى الحالة الغريبة التى غدا عليها الآن .. ان الأمر ليبدو كما لو كان إلحاحه فى لقائى مهمة أرغم على أدائها خوفا من تقريع أبيه وانتهاره إياه .. ولكن لا يمكن أن أحضر لمجرد إدخال السرور

على قلب مستر هيثكليف الأب مهما تكن لديه من بواعث لإرغامه لينتون على مكابدة هذا العذاب.. وانى ، وإن كنت مسرورة لتحسن صحته ، إلا اننى حزينة لأنه غدا أقل ظرفا ، بل أقل انعطافا نحوى إلى حد بعيد ..

فقلت :

ـ هل ترين إذن انه أحسن صحة ؟

ـ نعم .. لأنه كان دائما يولى آلامه وأوجاعه أعظم اهتمام ، كما تعلمين .. انه ليس فى صحة طيبة كما طلب إلى ان اقول لأبى ، ولكنه أحسن حالا فيما يبدو ..

ـ هذا ما أختلف عنك فيـه يا مس كاثى .. فانى اراه اسوأ بكثير ..

وفى تلك اللحظة ، أفاق لينتون من نعاسه مذعورا مشدوها ، يسأل فى لهفة هل نادى أحد باسمه ، فقالت كاثرين :

ـ كلا ، ما لم تكن سمعته فى الحلم !.. ولكنى لا استطيع أن أتصور كيف يمكنك أن تغفو خارج منزلك ، ونحن ما زلنا فى الصباح ..

فقال لاهثا ، وهو يتطلع إلى قمة التل المتجهمة فوقنا :

ـ ظننتنى سمعت صوت أبى .. هل أنت واثقـة من أن أحدا لم يتكلم ؟

فاجابته ابنة خاله :

ـ واثقة تماما .. وكل ما فى الأمر اننى كنت اجادل ايلين فى شأن صحتك .. فهـل ازددت قوة حقا عما كنت عنـد

افتراقنا فى الشتاء يا لينتون ؟ .. إذا كان الأمر كذلك ، فانى واثقة من أن شيئا واحدا لم يزدد قوة ، وهو تقديرك لى !.. تكلم .. هل انت أحسن حالا حقا ؟

فتدفقت الدموع من عينيه وهو يتمتم :

ـ نعم .. نعم .. إننى كذلك ..

وكأنما كان لا يزال مأخوذا برهبة ذلك الصوت الخيالى ، إذ راحت أنظاره الحائرة تجوب الأنحاء نحونا ليكتشف مكان المنادى .. وعندئذ نهضت كاثرين قائلة :

ـ كفانا هذا اليوم ، ولنفترق الآن .. غـير انى لا اخفى عليك أن لقاءنا قد أحزننى وخيب آمالى .. ولكن لن أقول ذلك لأحد سواك ، دون أن يكون ذلك لخوفى من مستر هيثكليف!

فغمغم لينتون مرعوبا :

ـ صه !.. اسكتى بحق السماء ، فانه قادم !

ثم تعلق بذراع كاثرين ، محاولا إبقاءها معه .. ولكنها إذ سمعت ما قاله ، أسرعت تخلص نفسها من يده ، ثم صفرت لمهرها الذى أسرع يلبى النداء ككلب مطيع ، ووثبت فـوق ظهره ، وهى تصيح :

ـ سأكون هنا يوم الخميس القـادم ، فالى اللقاء .. أسرعى يا ايلين !

وهكذا خلفناه وهو لا يكاد يحس برحيلنا ، إذ كان مستغرقا فى التوجس من اقتراب أبيه ..

وقبل أن نصل إلى المنزل ، كان سخط كاثرين قد لان حتى غدا شعورا امتزجت فيه الحيرة بالأسف والرثاء ، وأخذت تتراوحها شكوك غامضة قلقة نحو ظروف لينتون الحالية ، سواء الجسمانية أو العائلية .. ولقد شاركتها هذه الشكوك ، ولو أننى أشرت عليها بكتمان الأمر ، والتريث حتى تهيىء لنا رحلتنا القادمة أسباب الحكم على الأمور ..

وسألنا سيدى بيانا عن رحلتنا ، فنقلت إليه كاثرين شكر ابن أخته وامتنانه ، ومست حوادث باقى الرحلة مسا رقيقا .. كذلك أجبت على أسئلته بردود غامضة ، فلم أكن أعرف ما يجب أن أخفيه ، وما يجب أن أكشف عنه الحجاب !

❊ ❊ ❊





ثم صفرت لمهرها الذى أسرع يلبى النداء ككلب مطيع ، ووثب فوق ظهره ..

الفصل السابع والعشرون

انصرمت أيام سبعة ، كان كل منها يترك أثرا لمروره بالتبدل السريع الذى طـرأ على حالة ادجار لينتــون .. واصبحت الساعات تتسابق الآن فى غزواتها لصــحته ، بعد أن ظلت الشهور الماضية تنسج خيوطها على مهل للقضاء عليه .. وكنا نمنى أنفسنا بأن تظل كاثرين جاهلة لحالة أبيها ، ولكن روحها الحساسة ابت ان تظل سادرة فى خداعها لنفسها ، فأدركت حقيقة الأمر فى أعماقها ، وانشغل بالها بذلك الاحتمال المروع الذى اخذ يستكمل تحوله إلى حقيقة واقعة .. فلما أقبــل يوم الخميس ، لم يطاوعها قلبها على ذكر شىء عن نزهتهــا المرتقبة ، ولكنى توليت ذكر الأمر أمام سيدى ، فأذن لى بأن ارغمها على الخروج ، لأن غرفة ســيدى ومكتبته التى كان يمكث بها فترة يسيرة كل يوم ـ الفترة اليسيرة التى يحتمل فيها مشقة الجلوس ـ كانتا قد أصبحتا دنياها بأسرها .. كانت تحقد على كل لحظة تحرمها من الانحناء فوق وسادته أو الجلوس إلى جانبه .. وعلا وجهها الشحوب والامتقاع من الحزن ومن السهر على راحته .. حتى لقد سر سيدى بالسماح لها بالذهاب إلى ما كان يمنى نفسه بأن يكون تغييرا سعيدا للمناظر المحيطة بها ، والوسط الذى تعيش فيه ، وقد وجـد الراحــة والعــزاء فى الأمــل الذى راوده من أنه لن يتركها وحيدة تماما بعد مماته ..

وكانت لديه فكرة ثابتــة ، استطعت أن أســتشفها من الملاحظات العديدة التى أفلتت من لسانه ، وهى أنه ما دام

ابن أخته يشبهه جسما وشكلا فلا شك فى انه يشبهه روحا وعقلا ، إذ كانت خطابات لينتون الصغير لا توحى بشىء ، او باقل القليل ، عن خلقه المعيب !.. أما انا فقد أحجمت ، فى ضعف مغتفر ، عن مكاشفته بالحقيقة ، وساءلت نفسى : اية جدوى يمكن أن تكون فى إزعاج ســاعاته الأخيرة بمعلومات ليست له القوة او الفرصة على ان يتخذ لها موقفا ايجابيا ..

وأرجأنا نزهتنا إلى بعد الظهر .. وكان يوما ذهبيا من ايام شهر أغسطس ، وكل نسمة تهب فيه من ناحية التلال مليئة بالحياة حتى ليخيل إليك أن اى امرىء يستنشقها ويكون مشرفا على الموت ، فسوف تبعث فيه الحياة من جديد .. وكان وجه كاثرين اشبه بالمنظر الذى يمتد أمامنا !.. تتتابع عليه الظلال والشمس المشرقة ، فى سرعة وعجلة .. ولــكن الظلال كانت اطول أمدا ، على حين كان الاشراق عابرا عجولا ، وكان قلبها الصغير المسكين لا يفتأ نادما على تلك اللحظات العابرة التى يتناسى فيها همومه ومشاغله ..

وجدنا لينتون يرقب مجيئنا فى نفس البقعة التى اختارها أول مــرة .. فترجلت ســيدتى عن مهــرها ، وقالت لى إنهــا عازمة على البقاء فترة وجيزة ، ومن الأفضل ان اظل راكبة وأن أمسك بمقود جوادها .. ولكنى ابيت ذلك ، فما كنت لأخاطر بترك وديعتى تغيب عن أنظارى لحظة واحــدة .. وهكذا رحنا نرقى المرتفع المعشوشب معا ، حيث تلقانا السيد هيثكليف بمزيد من اللهفة والانتعاش هذه المرة .. ولكنها لم تكن لهفة السرور ، أو لهفة الشوق ، وإنما كانت تبدو أشبه بالفزع والذعر ..

وابتدرنا قائلا ، وهو ينطق فى صعوبة :

ـ لقد تأخـرت كثيرا ! .. وظننت انك لن تأتى .. ألم يشتد المرض على أبيك ؟

فصاحت كاثرين ، وهى تطبق فمها على عبارات التحية التى كانت تهم بها :

ـ لماذا ، بربك ، لا تكون صادقا صريحا ؟ .. ولماذا لا تقول مباشرة انك لا تريدنى ؟ .. ان أمرك عجيب يا لينتون ، فهذه هى المرة الثانية التى تأتى بى فيها إلى هنا عن عمد ، لا لسبب إلا لجلب الألم والأسى إلينا معا ..

فارتجف لينتون ونظر إليها نظرة طويلة ، فيها ضراعة وفيها حياء .. ولكن صبر ابنة خاله لم يكن ليتسع لاحتمال مسلكه الغامض ، فقالت :

ـ إن والدى مريض جدا .. فلماذا انتزعتنى من جـوار فراشه ؟ .. ولم لم تبعث إلى لتحلنى من وعدى ، عندما كنت تتمنى ان انكث به ؟ .. هيا .. اريد تفسيرا لكل ذلك الآن .. فان اللعب واللهو والعبث أشياء لم يعد لها مكان فى فكرى ، ولم يعد فى وسعى الآن ان ارعى رياءك فى خضـوع ومذلة ..

فغمغم قائلا :

ـ ريائى ؟ .. أين ريائى هذا ؟ .. بحق السماء ياكاثرين ، لا تدعى الغضب يتملكك هكذا !.. لك أن تحتقرينى كيفما تشائين ، فانى تعس جبان حقير .. وانى أستحق المزيد من

التقريع والتأنيب ، ولكنى أتفه من أن أثير غضبك .. امقتى والدى وأبغضيه ، وابقى لى الاحتقار والازدراء !

فصاحت كاثرين فى غضب وانفعال :

ـ هراء !.. وانت غلام معتوه أبله !.. انظرى .. انه يرتعد كما لو كنت أنوى حقا أن أمسه ! .. كلا يالينتون ، لا حاجة بك إلى ان تتعجل الاحتقار ، فان اى امرىء يحتفظ لك به تحت أمرك عند الطلب !.. انهض ، فسوف أعود إلى منزلى .. لقد كان من الجنون حقا اجتذابك من جوار الموقد ، زعما بأننا .. ولكن ما الذى زعمناه ؟ .. دع طرف ثوبى ! .. وإذا كنت قد رثيت لك وأشفقت عليك لبكائك وما يبدو عليك من آثار الفزع الرهيب ، فان الأخلق بك ان تترفع عن شـفقتى هذه ! .. قولى له يا ايلين كم فى مسـلكه هذا من هوان شائن !.. انهض ، ولا تنزل بنفسك إلى مرتبة الزواحف الخسيسة ! .. لا .. لا تفعل هذا !

فقد ارتمى لينتون بهيكله المنهار الاعصاب على الأرض ، وراح يتمرغ تحت قدميها ، والدموع تخضل وجهه الشاحب الذى ارتسمت عليه معالم الألم الفظيع .. كان يبدو كأن فزعا مروعا يهز جسمه هزا ..

وبين شهقاته ونحيبه ، راح يقول :

ـ آه !.. اننى ما عدت أحتمل ذلك !.. كاثرين !.. كاثرين !.. اننى خائن أيضا ، ولست أجرؤ على إخبارك !.. ولكن لو تركتنى ، فسيكون مصيرى القتل .. ان حياتى بين

يديك ياعزيزتي كاثرين ، وقد قلت انك تحبينني .. فاذا كنت كذلك حقا ، فان الأمر لن يضرك في شيء !.. انك لن تذهبي إذن ، يا كاثرين الجميلة ، الشفوقة ، الطيبة ؟ .. ومن يدري فلعلك توافقين .. وعندئذ يتركني ابي حتى أموت معك !

وإذ رات سيدتي الصغيرة ما يقاسيه من عذاب فظيع ، انحنت ترفعه من الأرض ، وقد تغلب شعور العطف والتسامح القديم على غضبها وحنقها .. وازداد تأثرها وقلقها ، فقالت تسأله :

ـ أوافق على أي شيء ؟ .. على البقاء ؟.. قل لي ما الذي تقصده من هذا الكلام الغريب ، وسوف أبقى معك بعض الوقت .. ولكن مسلكك يناقض أقوالك ، فتحيرني وتبلبل أفكاري .. فاهدأ وكن صريحا ، واعترف لي للتو بما يثقل قلبك .. انك لا تود الإساءة إلي يا لينتون ، أليس كذلك ؟ .. ولن تدع أي عدو يؤذيني إذا كان في وسعك أن تمنعه ، أليس كذلك ؟ .. أعتقد أنك قد تكون رعديدا جبانا في نفسك ، ولكنك لن تكون من النذالة بحيث تخون خير صديقة لك ..

فراح يعصر اصابعه الرخوة وهو يقول لاهثا :

ـ ولكن أبي قد توعدني بشر مستطير ، وإني اخشاه .. أخشاه بفزع عظيم .. فلا أجرؤ على أن أقول شيئا ..

فقالت كاثرين في حنان ساخر :

ـ آه .. حسنا .. اكتم سرك إذن !.. أما انا فلست على شيء من الجبن .. انج أنت بنفسك ، فاني غير خائفة !

فأثارت نخوتها دموعه ، وراح يبكي في ضراوة ، ويغطي يديها الممسكتين به بقبلاته وعبراته معا .. ومع ذلك لم يستطع أن يستجمع شجاعته ليفشي ما يكتمه ..

وبينما كنت أفكر فيما عسى أن يكون ذلك السر ، واقرر في نفسي أن كاثرين لا ينبغي أن تتألم في سبيله أو في سبيل أحد غيره ، دون أن أحرك ساكنا ، إذا بي أسمع حفيفا بين الهيش ، فتطلعت إلى يميني ، وإذا مستر هيثكليف يوشك أن يهبط فوق رؤوسنا قادما من « المرتفعات » .. ولم يلق نظره واحدة على رفيقي ، مع أنهما كانا قريبين منه إلى حد يجعل نحيب لينتون واضحا مسموعا في أذنيه ، وإنما ناداني في نبرات ودودة لا أحسبه خاطب بها أحدا من الناس في حياته قط .. وفي ذلك الاخلاص الذي لم أملك نفسي من التشكك فيه ، قال :

ـ ما أجمل أن أراك بالقرب من منزلي يا نللي !.. كيف حالك في « الجرانج » ؟

ثم خفض من صوته ، واستطرد يقول :

ـ ولكن طمنيني .. لقد شاع أن ادجار لينتون على فراش الموت ، أفلا يكون ذلك مبالغة في خطورة مرضه ؟

ـ كلا .. ذلك صحيح تماما ، فان سيدي في الاحتضار .. وسيكون موته أمرا محزنا لنا جميعا ، وإن كان نعمة عليه ورحمة له ..

ـ إلى متى يطول احتضاره ، في رأيك ؟

ـ ومن أين لى أن أدرى ؟

فتطلع ناحية الصغيرين اللذين جمد حراكهما تحت نظراته

ـ لأن لينتون كان يبدو كأنما لا يستطيع أن يجرؤ على أن يحرك أصبعا أو يرفع راسا ، كما أن كاثرين لم تستطع الحراك لأنه كان مستندا إليها متعلقا بها ـ ثم استطرد يقول لى :

ـ لأن هذا الغلام يبدو مصمما على هزيمتى !.. وكم اكون شاكرا لخاله لو استحث خطاه وقضى نحبه قبله !.. ولكن هل كان الجرو يلعب لعبته هذه منذ أمد طويل؟.. لقد لقنته « بعض » الدروس عن البكاء والولولة .. فهل كان بشوشا فرحا مع مس لينتون عادة ؟

ـ بشوشا فرحا ؟.. كلا .. بل كان يشكو آلامه ومتاعبه .. وعندما رايته ، وجدته خليقا أن يكون راقدا فى فراشه ، بين يدى الطبيب ، بدلا من أن يهيم على وجهه فوق التلال مع حبيبته !

فغمغم هيثكليف :

ـ سوف يكون كذلك بعد يوم أو اثنين .. اما الآن ..

ثم استطرد بصوت عال :

ـ انهض يا لينتون !.. انهض حالا ، ولا تزحف على الأرض هناك .. قم سريعا فى هذه اللحظة !

فان لينتون كان قد عاد إلى الانبطاح على الأرض وقد أصابته نوبة أخرى من الفزع اليائس احسب أن سببها نظرة

أبيه نحوه ، فلم يكن ثمة سبب آخر لهذه المذلة .. وقام بمحاولات عديدة لإطاعة أبيه ، ولكن قواه القليلة الباقية كانت قد تلاشت تماما ، فسقط على الأرض ثانية وهو يتاوه متالما .. فتقدم مستر هيثكليف نحوه ، ورفعه حتى أسنده إلى دغلة كثيفة من الهيش ، وهو يقول فى شراسة رادعة :

ـ لقد بدات اغضب منك الآن !.. وإذا كنت لا تسيطر على روحك الخائرة هذه .. آه !.. لعنة الله عليك .. انهض حالا !

فأجاب الغلام فى أنفاس لاهثة متلاحقة :

ـ سأقوم يا ابتاه .. فقط دعنى وحدى وإلا غشى على .. لقد فعلت كل ما طلبت منى أن افعله .. اننى واثق من ذلك .. وسوف تخبرك كاثرين أننى .. أننى كنت معها مرحا طروبا !.. آه !.. ابقى بجانبى يا كاثرين .. أعطينى يدك !

فقال أبوه :

ـ خذ يدى انا ، وقف على قدميك .. والآن ؟.. سوف تقدم لك ذراعها .. حسنا .. انظر إليها هى .. لعلك تتصورين يا مس لينتون أننى الشيطان نفسه ، إذ أثير مثل هذا الفزع .. هلا تكرمت بالسير معه حتى المنزل ؟.. سوف يرتعد خوفا إذا لمسته !

فهمست كاثرين قائلة :

ـ ولكنى لا أستطيع الذهاب معك إلى « مرتفعات ويذرنج »

يا عزيزى لينتون .. لقد حرم على أبى ذلك .. انه لن يؤذيك ، فلماذا كل هذا الخوف ؟

ـ لا أستطيع ابدا أن ادخل هذا المنزل ثانية .. بل ليس لى أن ادخله بدونك !

فصاح أبوه :

ـ صه !.. إننا سوف نحترم تمسك كاثرين بطاعتها لأبيها .. خذيه انت إلى المنزل يا نللى ، وسوف اعمل بنصيحتك وأحضر له الطبيب دون إمهال ..

ـ حسنا تفعل .. ولكنى يجب أن ابقى مع سيدتى .. فليست العناية بابنك من شأنى !

ـ إنك شديدة الصلابة ، كعهدى بك .. ولكنك ستضطريننى إلى أن أقرص الغلام ، واجعله يملأ الدنيا صراخا ، قبل أن يحرك شفقتك وإحسانك !

واقترب منه ثانية ، ومد يده نحوه كأنما يريد أن يمسك بذلك المخلوق الهش الخائر .. ولكن لينتون ارتد إلى الوراء مجفلا ، وتعلق بابنة خاله ، وراح يتوسل إليها أن تصحبه إلى المنزل ، فى إلحاح جنونى لا يحتمل إباء . وبرغم اننى كنت غير موافقة ، فاننى لم أستطع منعها من الذهاب .. وكيف كان يمكنها أن ترفض مصاحبته حقا ؟.. اننا لم يكن فى وسعنا ، ولا فى متناول يدنا ، أن ندرك كنه ذلك الرعب الذى يملؤه .. وإنما كنا نراه امامنا ضعيفا متخاذلا تحت قبضة

هذا الفزع الرهيب ، ولا شك ان أية زيادة عليه كانت كفيلة بإصابته بالجنون ..

فلما بلغنا باب المنزل ، صحبت كاثرين العليل إلى الداخل ، على حين وقفت انتظرها ريثما تقوده إلى مقعد أو أريكة ، متوقعة أن تخرج على التو ، وإذا مستر هيثكليف يدفعنى إلى الأمام ، هاتفا :

ـ إن بيتى ليس موبوءا بالطاعون يا نللى !.. ثم اننى أريد أن اكون كريما مضيافا اليوم .. هيا اجلسى .. واسمحى لى بأن أغلق الباب !

ولكنه لم يغلقه فحسب ، وإنما أوصده بالمفتاح .. فأجفلت ، وهممت بالقيام ، ولكنه أضاف مستطردا :

ـ سوف تتناولان الشاى معى قبل عودتكما ، فاننى وحدى اليوم ، إذ خرج هيرتون ببعض الماشية إلى السوق ، كما ذهبت زيللا وجوزيف فى إجازة للراحة والفسحة !.. وبرغم اننى اعتدت هذه الوحدة ، إلا اننى افضل كثيرا أن أستمتع بصحبة لطيفة ، بين آن وآخر ، إذا تيسرت لى .. خذى مقعدك واجلسى بجانبه يا مس لينتون .. اننى اقدم لك ما لدى .. وما لدى الآن لا يكاد يستحق شرف قبولك ، ولكن لا حيلة لى فى الأمر ، فهو (الحاضر) ، وليس لدى ما أقدمه لك غيره !.. ما لها تحملق فى وجهى !.. من العجيب انى ينتابنى شعور وحشى حيال كل شىء يبدو خائفا منى !..

ولو كنت قد ولدت فى مكان آخر حيث القوانين اقل وطأة ، والأذواق اقل تأنقا ، لسليت نفسى بتقطيع أوصال هذين الاثنين حيين تقطيعا بطيئا ، ولجعلت من ذلك تسلية المساء !

ثم زفر بأنفاسه ، ولطم المائدة بقبضة يده ، وهو يغمغم ساخطا :

ـ يا للجحيم !.. شد ما أكرههما !

فصاحت كاثرين ، التى لم يكن فى وسعها ان تسمع الشطر الأخير من كلامه :

ـ اننى لا أخشاك ولا أخافك !

ثم خطت متقدمة نحوه ، وعيناها السوداوان تومضان بالغضب والعزم القوى ، وقالت :

ـ أعطنى ذلك المفتاح .. سوف آخذه بنفسى !.. اننى لن أذوق هنا طعاما او شرابا ولو هلكت جوعا وظمأ ..

وكان هيثكليف يضع المفتاح فى يده الممدودة فوق المائدة .. فرفع أنظاره يتطلع إليها ، وقد أذهلته جرأتها ، أو لعل صوتها ونظرتها قد ذكراه بالمرأة التى ورثتهما عنها .. واختطفت المفتاح ، وكادت تفلح فى إخراجه من بين أصابعه المنفرجة ، عندما اخرجته فعلتها من ذهوله ، وردته إلى الحاضر ، فاستعاد المفتاح سريعا ، وقال :

ـ اسمعى يا كاثرين لينتون .. اذهبى بعيدا ، وإلا صرعتك أرضا !.. وإن كان ذلك يصيب مسز دين بالجنون !

ولكنها لم تعبأ بوعيده ، وامسكت ثانية بيده المطبقة على المفتاح ، وهى لا تفتأ تردد :

ـ سوف نخرج .. سوف نخرج حتما ..

وراحت تبذل قصارى جهدها فى إلانة عضلاته الفولاذية ، فلما فشلت أظفارها فى إحداث اى اثر فيها ، بدأت تستخدم أسنانها الحادة استخداما بارعا .. وعندئذ رمقنى هيثكليف بنظرة جعلتنى اجمد فى مكانى ، لا أقوى على التدخل ، لحظة .. وكانت كاثرين منحنية فوق يده ، منهمكة فى إعمال أسنانها فى أصابعه ، فلم تنتبه إلى التبدل الذى اعترى وجهه ، عندما فتح أصابعه فجأة ، وتركها تأخذ المفتاح من بينها ، ولكنها قبل أن تستولى عليه تماما ، أمسك بها بيده المتحررة ثم جذبها فوق ركبته ، وانهال عليها بيده الأخرى بلطمات عنيفة مروعة فوق جانب رأسها ، وكل منها خليقة بأن تصرعها أرضا لو كانت تستطيع السقوط ..

واندفعت نحوه ثائرة ، إذ رأيت هذا البطش الشيطانى ، وبدأت أصيح به : أيها النذل .. أيها الوحش ..

ولكن أخرستنى وكزة شديدة تلقيتها فى صدرى ، وقطعت أنفاسى على رغم ما لى من قوة وصحة .. واجتمع على الألم والغضب فترنحت مرتدة إلى الخلف ، وقد دارت بى الأرض ، حتى سقطت وقد أوشكت أن يصيبنى الاختناق أو ينفجر شريان فى راسى !

وانتهى المشهد فى دقيقتين .. فرأيت كاثرين ، بعد أن أطلق سراحها ، تضع كلتا يديها فوق صدغيها ، وهى تبدو

كما لو كانت غير واثقة مما إذا كانت أذناها فى مكانيهما أو انتزعتا !.. كانت المسكينة ترتعد كقصبة فى مهب الريح ، وتستند إلى المائدة فى ذهول ودهشة بالغين ..

وانحنى الوغد ليلتقط المفتاح الذى كان قد سقط على الأرض ، وهو يقول :

ـ إننى أعرف كيف أؤدب الأطفال العصاة ، كما رأيت .. والآن اذهبى إلى لينتون ، وخذى راحتك فى البكاء كيفما شئت .. سوف اكون أباك غدا ـ الأب الوحيد الذى سيبقى لك بعد أيام قليلة ـ وسوف تنالين منى الكثير مما رأيت .. انك لست ضعيفة ، وفى وسعك ان تحتملى المزيد ، وستنالين جرعة منه كل يوم لو لمحت فى عينيك شيطان القحة مرة أخرى ..

وجرت كاثى ـ لا نحو لينتون ـ ولكن نحوى ، فركعت امامى واراحت وجنتها الملتهبة فى حجرى ، وهى تنشج نشيجا عاليا .. أما ابن عمتها فقد كمن فى ركن الأريكة ، هادئا كالجرذ ، يهنىء نفسه بالسلامة .. بل يخيل إلى انه كان سعيدا بأن التأديب حل بشخص آخر سواه !

ونهض مستر هيثكليف ، إذ رآنا جميعا واجمين مبهوتين ، فتولى بنفسه عمل الشاى فى خفة وسرعة .. وكانت الأقداح والأطباق مرصوصة على المائدة منذ البداية ، فملأها وناولنى قدحا منها ، وهو يقول :

ـ اطردى عنك الحقد والغضب ، وهيا قدمى الشاى

« لدلوعتك ودلوعتى » !.. انه ليس مسموما ، وإن كان من صنع يدى !.. اما انا فذاهب للبحث عن جواديكما ..

وكان أول ما طرأ على فكرنا ، اثر انصرافه ، ان ندبر لنفسينا طريقا للخروج من اى منفذ ، ولو قسرا .. فأسرعنا نجرب باب المطبخ ولكنا وجدناه موصدا من الخارج .. ونظرنا إلى النوافذ ولكنها كانت أضيق من ان تتسع للمرور حتى لجسم كاثى النحيل .. فلما رأيت اننا سجينتان ما لنا من خلاص ، صحت بالغلام :

ـ إنك تعلم ، يا سيد لينتون ، ما يسعى أبوك الشيطانى وراءه ، وسوف تخبرنا به على الفور وإلا الهبت صدغيك كما فعل بابنة خالك ..

فقالت كاثرين :

ـ نعم يا لينتون .. يجب أن تخبرنا .. فقد كان من اجلك ان حضرت إلى هنا ، ومن الجحود الشرير أن ترفض مصارحتنا بالحقيقة ..

فأجاب مرتاعا :

ـ اعطينى اولا قليلا من الشاى ، لانى ظمآن ، وعندئذ سوف أخبرك بكل شىء .. ابعدى عنى يا مسز دين ، فانى لا احب وقفتك فوق راسى !.. وانت يا كاثرين ، لقد تركت دموعك تسقط فى قدحى .. اننى لن اشربه ، فأعطينى قدحا آخر !

فدفعت إليه كاثرين قدحا غيره ، وجففت دموعها ووجهها .. وشعرت بالاشمئزاز من مسلك ذلك التعس الصغير ، منذ أن أمن على نفسه ، وفارقه الفزع مما عساه يصيبه !.. كان الذعر الذى أظهره فوق البرارى ، قد سكن وهدأ بمجرد دخوله « مرتفعات ويذرنج » .. وحدست من ذلك انه كان قد انذر بأن يحل به افظع العقاب إذا فشل فى إيقاعنا فى الشرك واقتيادنا إلى داخل المنزل .. فلما تم له ذلك ، لم يعد لديه ثمت سبب مباشر للخوف !

واستطرد يقول ، بعد ان رشف قليلا من الشاى :

ـ إن ابى يريد أن يعقد زواجنا .. وهو يعلم ان اباك ان يوافق على زواجنا الآن .. ولكنه يخشى أن أموت إذا أرجأنا الأمر .. ولذلك فسوف نتزوج فى الصباح ، وستبقين هنا هذه الليلة .. فاذا نفذت رغبته ، فسوف تعودين إلى منزلك فى اليوم التالى ، وستأخذيننى معك ..

فهتفت قائلة :

ـ تأخذك انت معها ايها المتقلب المنافق الحقير ؟.. انت تتزوج ؟.. لماذا ؟.. إن الرجل قد اصابه الجنون ، أو يعتقد اننا بلهاء جميعا !.. هل تتصور ان هذه السيدة الشابة الجميلة ، التى تفيض بالصحة والنضارة وطيبة القلب ، يمكن أن تتزوج من قرد صغير مشرف على الهلاك مثلك ؟!.. وهل تراك تتعلق بفكرة أن هناك اية فتاة ـ ودعك من مس كاثرين لينتون ـ يمكن أن ترضى بك زوجا ؟.. انك تستحق الجلد بالسياط على إحضارك إيانا إلى هنا ، بأحاديثك الخسيسة

النواحة !.. لا تظهر الآن بهذه البلاهة بعد ما فعلت !.. والله اننى لأود الآن أن أظل أهزك فى عنف ، جزاء خيانتك الحقيرة ، وخدعتك السخيفة !

والواقع اننى امسكت به وهززته هزة يسيرة ، ولكنها كانت كافية لإثارة سعاله ، ثم لجأ إلى معينه العادى من الأنين والبكاء ، مما جعل كاثرين تنتهرنى ..

وراحت تتلفت حولها فى تمهل وإمعان ، وهى تقول :

ـ كلا .. لن نبقى هنا الليلة !.. سوف أخرج من هنا يا إيلين ، ولو حرقت هذا الباب ..

وكانت تهم بتنفيذ وعيدها فى الحال ، عندما جفل لينتون فزعا على شخصه العزيز ثانية ، وتعلق بها بين ذراعيه الضعيفتين ، قائلا فى عويل :

ـ الا تريدين أن ترضى بى ، فتنقذينى ؟.. الا تريدين أن اذهب معك إلى « الجرانج » ؟.. أواه يا عزيزتى كاثرين .. لا ينبغى لك أن تذهبى وتتركينى الآن !.. بل يجب أن تطيعى أبى .. يجب أن تطيعيه حتما ..

فأجابته :

ـ بل يجب ان اطيع ابى ، وانقذه من عذاب الانتظار الأليم .. اقضى الليلة كلها هنا ؟.. وماذا عساه يظن ؟.. انه سوف يقلق لغيابنا وتشتد كربته .. ولابد لى من أن احطم أى منفذ أو أحرقه حتى أخرج من هنا .. اسكت واهدأ !.. فلست

معرضا لأى خطر !.. أما إذا حاولت منعى يا لينتون .. اننى أحب ابى أكثر مما أحبك ..

وكان الفزع المميت الذى ينتابه من غضب مستر هيثكليف ، قد أعاد إلى الغلام فصاحته وذلاقته المنبعثتين من جبنه وخوره ، حتى كادت كاثرين تنشغل به عن موقفها .. ومع ذلك ظلت تصر على وجوب عودتها لمنزلها ، ولجأت إلى التوسل والاستعطاف بدورها ، محاولة إقناعه بأن يقهر آلامه وينسى أنانيته .. وفيما كانا منهمكين فى هذا الجدال دخل سجاننا ثانية ، وهو يقول :

ـ لقد شرد جواداكما ، ولم أجدهما ، و .. ما هذا يا لينتون ؟.. هل عدت إلى البكاء ثانية ؟.. ما الذى كانت تفعله بك ؟.. هيا .. هيا .. يكفيك ذلك الآن ، فاذهب إلى فراشك .. انك بعد شهر أو اثنين يا بنى ، سوف تكون قادرا على أن تكيل لها الصاع صاعين وتثأر لنفسك من طغيانها الحالى ، بيد مليئة بالقوة !.. انك الآن تذوى وتضعف من حنينك إلى الحب الخالص ، اليس كذلك ؟.. ولا شىء سواه فى هذا العالم يقض مضجعك ويهدم صحتك .. ولكنها سوف تكون لك !.. اذهب إلى فراشك الآن ، ويجب ان تخلع ثيابك بنفسك ، فان زيللا لن تكون هنا الليلة .. صه !.. كف عن هذه الضجة !.. انك متى ذهبت إلى حجرتك فاننى لن أقترب منك ، ولا حاجة بك إلى الخوف منى .. وعلى فكرة ، فانك أجدت التصرف اليوم ، وسوف يكون من شأنى تدبير مابقى..

وكان ينطق بهذه الكلمات وهو يمسك بالباب منفرجا لمرور

ابنه .. أما لينتون فقد كان فىمروره يشبه تماما ما يفعله كلب صغير يشك فى أن الواقف بالباب يضمر له شرا ويرتقب فرصة مروره ليطبق الباب عليه فيهصره هصرا .. وأوصد الباب من جديد ، واقترب هيثكليف من المدفأة ، حيث كنت وسيدتى نقف صامتتين .. فتطلعت كاثرين نحوه ، ثم رفعت يدها إلى وجنتها فى حركة غريزية ، إذ كان وقوفه فى جوارها يحيى شعورا اليما فى نفسها .. وان اى شخص غيره لخليق بأن ينظر إلى هذه الحركة الصبيانية فى إشفاق وتأثر ، ولكنه كشر فى وجهها ، وتمتم قائلا :

ـ آه !.. ألم تقولى انك لا تخافيننى ؟.. انك إذن تخفين شجاعتك وراء قناع ماهر ، لأنك تبدين شديدة الفزع !

ـ إننى خائفة الآن فعلا .. لأننى إذا بقيت هنا فسيشقى والدى لغيابى .. وكيف يمكن لى أن أحتمل شقاءه وعذابه ، بينما هو .. بينما هو .. آه !.. دعنى أرجع إلى منزلى يا مستر هيثكليف ، واعدك بأننى سوف أتزوج من لينتون ، لان والدى يود ان اتزوج منه ، كما اننى احبه .. لماذا تريد أن ترغمنى على ما سأفعله عن طيب خاطر ومن تلقاء نفسى ؟..

فصرخت قائلة :

ـ دعيه يجرؤ على إرغامك ! .. إن فى هذا البلد قانونا ، والحمد لله ، ولو اننا فى مكان ناء عن العمران .. سوف أبلغ عنه ولو كان ابنى ، فهذه جريمة خطيرة لا يسرى عليها قانون العفو !

فصاح الوغد :

ـ اخرسى .. ولتذهب صيحاتك هذه إلى الشيطان !.. إياك أن تتكلمى بعد ذلك !

ثم استطرد يقول لكاثرين :

ـ إننى يا مس لينتون سوف أجد متعة عظيمة فى التفكير بأن والدك سوف يشقى بسببى .. بل سيطير النوم من عينى رضى وارتياحا .. وما كان فى وسعك ان تجدى وسيلة أضمن لبقائك تحت سقف منزلى خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة ، خيرا من قولك لى بأن شقاء والدك وعذابه سيتبعان ذلك !.. أما عن وعدك بالزواج من لينتون ، فاننى ساعنى بالوفاء به ، لانك لن تبرحى هذا المكان حتى ينجز هذا الوعد !

فصاحت كاثرين وهى تبكى بحرارة :

ـ أرسل ايلين إذن لتخبر أبى بأننى سالمة ، او اعقد زواجى الآن !.. يا لأبى المسكين !.. سوف يظن أننا فقدنا يا ايلين !.. فماذا نفعل الآن ؟..

فأجاب هيثكليف :

ـ لن يظن شيئا من ذلك !.. وإنما سيظن أنكما مللتما خدمته المتواصلة ، فذهبتما بعيدان تنشدان شيئا من المتعة ! .. وليس فى وسعك أن تنكرى انك دخلت منزلى بملء اختيارك ، احتقارا لأوامره التى تحرم عليك دخوله !.. ومن الطبيعى حقا ، أن تنشد فتاة فى مثل سنك ، بعض المتعة والترفيه ، وأن تسأم خدمة رجل مريض ، ليس إلا والدها !

.. لقد انتهت أسعد أيامه ، يا كاثرين ، يوم بدأت أيامك فى الحياة .. وأحسبه كان يلعنك لقدومك إلى العالم (أما أنا فقد لعنتك حقا) ، فلا بأس بأن يلعنك وهو يغادره !.. وسأشاركه هذه اللعنة.. اننى اكرهك !.. ومالى لا أفعل ؟.. ابكى وأمعنى فى البكاء ما شئت ، فسوف يكون البكاء تسليتك العظمى بعد الآن ، كما يبدو لى !.. إلا إذا كان لينتون عوضا كافيا لأية خسارة اخرى !.. ويبدو أن والدك الملهم كان يراه كذلك ، فان خطاباته المليئة بالنصائح والعزاء كانت تسلينى كثيرا .. وفى خطابه الأخير ، كان يوصى « جوهرتى » بأن يعنى « بجوهرته » ، وأن يكون رفيقا بها عندما ينالها !.. العناية والرفق .. إنها وصايا خليقة بالآباء حقا !.. ولكن لينتون فى حاجة إلى كل رصيده من العناية والرفق ليسبغهما على نفسه.. وفى وسع لينتون أن يؤدى دور الطاغية الصغير ، فيجيد اداءه !.. انه خليق بأن ينهض بتعذيب أى عدد من القطط لو نزعت أسنانها وقلمت مخالبها !.. وسوف يكون فى وسعك ان تقصى على خاله أروع القصص عن رفقه وشفقته ، عندما تعودين إلى منزلك ثانية !

فقلت :

ـ الآن لم تقل إلا صدقا !.. اتمم كلامك ، واشرح خلق ولدك ، واظهرنا على ما فيه من شبه بخلقك .. وأرجو عندئذ أن تفكر مس كاثى مرتين قبل أن تتزوج من الوحش المميت !

فأجابنى :

ـ إننى لا أبالى كثيرا بالحديث عن مزاياه المحببة الآن ،

لأنها إما أن تقبله ، أو تبقى سجينة هنا ، وانت معها ، حتى يموت سيدك .. وفى وسعى ان احجزكما هنـا ، فى خفاء ، لا يعلم احد عنكما شيئا .. فاذا شككت فى ذلك فما عليك إلا أن تشجعيها على سحب كلمتها ، وعندئذ تتاح لك الفرصة كى تحكمى بنفسك ..

فقالت كاثرين :

ـ إننى لن أسحب كلمتى .. سـوف أتزوج منه هـذه الساعة ، إذا سمحت لى بالعودة إلى « ثرشكروس جرانج » بعد ذلك .. انك رجل قاس ، يا مستر هيثكليف ، ولكنك لست شيطانا رجيما !.. ولن ترضى بتدمير سعادتى إلى غير رجعة ، لمجرد شفاء حقدك ، وبدافع من الشر فحسب !.. ولو أن أبى ظن أننى تركته عن عمد ، ثم مات قبل عودتى ، فهل أطيق الحياة بعد ذلك ؟.. لقد كففت عن البكاء ، ولكنى سوف أجثو هنا ، عند قدميك ، ولن أقوم ثانية ، او احول عينى عن وجهك ، حتى تنظر إلى .. كلا .. لا تدر وجهك عنى .. انظر إلى !.. انك لن ترى شيئا يثيرك او يغضبك.. فانا لا ابغضك .. ولست غاضبة لأنك لطمتنى .. الم تحب أحدا قط فى حياتك كلها يا عماه ؟.. ابدا ؟.. آه !.. يجب ان تنظر إلى مرة واحدة .. اننى تعسة شقية ، إلى حد لا يسعك معه إلا ان تأسف لحالى وترثى لى !

فصاح هيثكليف وهو يدفعها عنه فى وحشية رهيبة :

ـ أبعدى أصابعك الشبيهة بأصابع السحالى ، وامشى بعيدا وإلا ركلتك بقدمى !.. اننى أفضل ان تحتضننى أفعى





فصـاح هيثكليف وهـو يدفعهـا عنـه فى وحشية رهيبـة
ـ أبعـدى أصـابعك الشبيهـة بأصـابع السحالى ..

عن أن تقربينى !.. وكيف خيل إليك ، بحق الشيطان أنك قادرة على خداعى وتملقى ؟.. اننى امقتك .. امقتك !

وكان يهز كتفيه فى استخفاف ، وينفض جسمه كأنما اصابته قشعريرة الاشمئزاز حقا ، ويرتد بمقعده إلى الوراء نافرا .. ونهضت من مجلسى ، وفتحت فمى لأبدأ سيلا جديدا من السباب ، عندما أخرسنى قبل أن أفوه بكلمة ، منذرا بأننى سوف أسجن فى إحدى الغرف وحدى إذا نطقت بحرف واحد !

وكان الظلام قد بدأ يتكاثف عندما سمعنا أصواتا تتكلم عند بوابة الحديقة ، فأسرع مضيفنا إلى الخارج لا يلوى على شىء .. كان يحتفظ بقدرته على التفكير ، اما نحن فقد شرد فكرنا .. وطال الحديث دقيقتين أو ثلاثا ، عاد على أثرها بمفرده ..

وكنت أقول لكاثرين :

ــ لقد ظننته ابن خالك هيرتون .. وليته يعود الآن ، فمن يدرى لعله ينحاز إلى جانبنا ..

فقال هيثكليف ، وقد سمع ما قلته :

ــ إنهم ثلاثة من الخدم حضروا من الجرانج للبحث عنكما .. وكان ينبغى أن تفتحى النافذة وتناديهم !.. ولكنى اقسم

ان هذه الطفلة قد سرها أنك لم تفعلى .. انها سعيدة لإرغامها على البقاء ، ولا شك لدى فى ذلك ..

فلما علمنا بالفرصة التى اضعناها ، اطلقنا العنان لاحزاننا ، ووجدنا ، كلانا ، فى البكاء متنفسا لآلامنا الحبيسة .. وظل صامتا بلا حراك لا يعترض على نحيبنا حتى بلغت الساعة التاسعة .. وعندئذ أمرنا أن نصعد إلى حجرة زيللا بالطابق العلوى ، عن طريق المطبخ .. فهمست لرفيقتى أن تطيعه ، فربما استطعنا أن نحاول الخروج من نافذتها ، أو التسلل إلى إحدى العليات والهرب من كوتها .. ولكن النافذة كانت ضيقة كنوافذ الدور الأرضى ، كما أن الباب المؤدى إلى العليات كان بعيدا عن متناولنا ، لأن الحجرة اوصدت علينا من الخارج كما حدث فى الحجرة السفلى ..

ولم ترقد واحدة منا .. أما كاثرين فقد أخذت موقفها بجوار النافذة ، وظلت تحدق النظر منها وترقب الصباح فى لهفة .. وكان جوابها الوحيد على محاولاتى المتعددة باقناعها بأن تستريح قليلا ، تنهدا عميقا حسبت صدرها قد انشق منه .. واما انا فقد جلست على أحد المقاعد ، وجعلت أتأرجح فيه إلى الأمام وإلى الخلف ، ورحت أنحى باللوم العنيف على نفسى ، لما فرط منى من الإخلال بواجبى مرات عديدة . وبدا لى عندئذ أن كل ما أصاب مخدومى من شقاء ومتاعب ، إنما كان مبعثه تقصيرى هذا .. وإنى أعلم الآن أن الأمر لم يكن

كذلك حقا ، ولكن ذلك هو ما سيطر على خيالى فى تلك الليلة المشئومة حتى لقد خيل إلى ان هيثكليف نفســه كان اقل جريرة منى !

وحضر إلينا هيثكليف فى الساعة السابعة ، فسأل إن كانت مس لينتون قد استيقظت ، فانطلقت تعدو نحو الباب وهى تجيب : « نعم .. نعم ! »

وعندئذ فتح البـاب ، وجذبها إلى الخـارج وهو يقول : « تعالى إذن ! »

فنهضت لأتبعها ، ولكنه أوصد الباب دونى ، ولمـا طلبت إليه أن يطلق سراحى ، أجاب :

ـ صبرا .. صبرا .. سوف أرسل لك طعام الإفطار بعد لحظـة !

ولكنى رحت أطرق الباب فى عنف ، وأحرك المزلاج الداخلى فى صخب .. وســألته كاثرين عن سبب استمرار حبسى ، فأجاب بأن على ان أحتمل ذلك ســاعة أخرى .. ثم تركانى وانصرفا معا ..

وصبرت على السجن ســاعتين او ثلاثا ، واخيرا سمعت وقع خطوات ، لم تكن خطوات هيثكليف ، ثم صوتا يقول :

ـ لقد أحضرت لك شيئا من الطعام .. افتحى الباب ..

فأطعت فى لهفة ، وعندئذ رأيت هيرتون محملا بطعام يكفى لغــذائى يومــا كاملا . ودفع بالصفحة بين يدى قــائلا : « خذى ! .. » .

فبدأت اقول :

ـ ابق معى دقيقة واحدة ..

ولكنه صاح فى وجهى : « كلا ! » .

ثم تراجع إلى الوراء ، وهو يوصد الباب من الخارج ، غير مكترث للتوسلات التى تدفقت من فمى كى أبقيه معى قليلا ..

وظللت حبيسة اليوم بأسره ، والليلة التــالية ، ثم ليلة اخرى ، فثالثة .. خمس ليـال وأربعــة أيام قضيتها فى سجنى ، لا أرى أحدا غير هيرتون ، مرة واحدة فى كل صباح .. وكان مثال السجان الأمين ، متجهما صــارم الأسارير ، يصيبه الخرس والصمم أمام أية محاولة منى لإثارة الشعور بالعدالة او الرحمة فى نفسه ..

* * *



الفصل الثامن والعشرون

فى صباح اليوم الخامس ، أو بالأحرى بعد الظهر ، سمعت خطوات مختلفة عن خطى هيرتون تقترب من زنزانتى .. خطى أخف وقعا وأقصر مدى .. وفى هذه المرة دخل القادم الحجرة ولم يكتف بالوقوف خارجها .. كانت « زيللا » مدبرة المنزل ، متدثرة بشملتها القرمزية ، ومغطية رأسها بقلنسوة حريرية سوداء ، وقد علقت فى ذراعها سلة من أغصان الصفصاف ..

وما كادت ترانى حتى هتفت تقول :

ـ آه يا إلهى !.. مسز دين !.. أهـذه أنت حقا ؟.. حسنا !.. إن الناس يتحدثون عنك فى « جيمرتون » ، وظللت أعتقد أنك غرقت فى مستنقع « الجواد الأسود » ، والآنسة معك ، حتى أخبرنى السيد بأنهم عثروا عليك وأنه أسكنك هنا !.. ولكن .. لابد أن تكونى قد ارتقيت جزيرة وسط المستنقع ، فلم تغرقى !.. وكم من الزمن لبثت فى هـذه الورطة ؟.. هل السيد هو الذى انقذك يا مستر دين ؟ .. ولكن عجبا !.. أراك لم يصبك الهزال والنحول !.. ويبدو انك لم تقاسى كثيرا ، أليس كذلك ؟

فأجبتها :

ـ إن سيدكِ وغد عريق ! .. ولكنه سوف يدفع الثمن غاليا .. انه لم يكن فى حاجة إلى اختلاق هذه الرواية ، فلن يلبث الناس حتى يعرفوا كذبها ..

ـ ماذا تعنين ؟. انها ليست روايته ، بل هى حديث الناس فى القرية .. فهم جميعا يقولون انك فقدت فى المستنقع .. وعندما عدت من أجازتى ، ذهبت إلى ايرنشو ، وقلت له : « لقد وقعت أشياء عجيبة منذ ذهابى يا مستر هيرتون !.. وانه لمصير محزن لتلك الفتاة اللطيفة ، ومسز دين الطيبة ! » .. فراح يحملق فى وجهى حتى ظننتـه لم يسمع شيئا عن الأمر ، وهكذا أخبرته بما تقول الشائعات .. وكان السيد يصغى إلى ، فما لبث أن ابتسم وقال : « إن كانتا قد سقطتا فى المستنقع يا زيللا ، فانهما خارجه الآن !.. ان نللى دين تقيم فى حجرتك هذه اللحظة ، وفى وسعك أن تطلبى إليهـا الرحيل ، عندما تصعدين إليها .. هاك المفتاح !.. كانت رأسها مليئة بالوحل والمـاء الآسن ، وارادت أن تجرى عائدة إلى منزلهـا ، وقد أصابها الخبال ، ولكنى أرغمتها على البقاء هنـا حتى تستعيد حواسها الضـائعة ! .. والآن يمكنك أن تطلبى إليها الذهاب إلى « الجرانج » على الفور ، إذا كانت قادرة على السير ، وأن تبلغهم رسالة منى ، هى أن السيدة الشابة سوف تلحق بها فى الوقت المناسب لحضور جنازة السيد ! »

فهتفت فى أنفاس لاهثة :

ـ آه !.. زيللا !.. زيللا !.. ان مستر ادجار لم يمت أليس كذلك ؟..

ـ كلا .. كلا .. اجلسى واهدئى أيتها السيدة الطيبة ! .. انك ما زلت مريضة إذن ؟.. كلا .. انه لم يمت وفى رأى

الدكتور كينيث أنه قد يعيش يوما آخر .. لقد قابلته فى الطريق وسألته عنه ..

ولكنى ، بدلا من ان أجلس ، اختطفت ثيابى الخارجية ، وهبطت السلم على عجل ، إذ وجدت الطريق خاليا .. فلما ولجت حجرة الجلوس ، رحت اتطلع حولى باحثة عن شخص اسأله عن كاثرين .. وكان المكان مليئا بأشعة الشمس الدافئة ، والباب مفتوحا على مصراعيه .. ولكنى لم أر أحدا هناك ، أو هكذا خيل إلى فى بادىء الأمر، لأننى عندما استدرت مترددة بين الرحيل من فورى ، أو العودة للبحث عن سيدتى ، استرعى انتباهى سعال خفيف ينبعث من ناحية المدفأة .. كان لينتون مضطجعا فوق الأريكة ، وحده فى الحجرة كلها ، يمتص عصا من (السكر نبات) ، ويتبع حركاتى بعينين خاملتين .. فسألته فى صرامة وشدة : « أين مس كاثرين ؟ » .. وقد خيل إلى أننى إذا أفزعته ، وهو بمفرده ، فسوف يبوح لى بمعلوماته على الفور .. ولكنه ظل يمتص حلواه فى براءة ، دون أن يجيب ، حتى قلت :

ـ هل رحلت ؟

عندئذ اجابنى قائلا :

ـ كلا .. انها فى الطابق العلوى ، ولن ترحل من هنا .. إننا لن نسمح لها بذلك !

فصحت به :

ـ لن تسمح لها أيها الأبله الصغير !.. أرشدنى إلى حجرتها فى الحال وإلا جعلتك تصرخ صراخا حادا !

ـ بل إن أبى هو الذى سيجعلك تصرخين إذا ذهبت إلى هناك .. وهو يقول اننى لا يجب أن اكون لينا مع كاثرين ، فهى زوجتى ، ومن العار أن ترغب فى هجرى !.. ويقول أيضا انها تمقتنى ، وتتمنى أن أموت ، حتى ترث أموالى .. ولكنها لن تنالها !.. ولن تعود إلى منزلها !.. لن تعود أبدا ! .. وفى وسعها أن تبكى وأن تمرض ما شاء لها البكاء والمرض !

وعاد إلى شغلته السابقة فى امتصاص حلواه ، وقد أغلق جفونه كأنما ينوى أن يستسلم للنعاس .. وعندئذ عمدت إلى الملاينة ، فقلت :

ـ هل نسيت يا سيد لينتون رفق كاثرين بك فى الشتاء الماضى ، عندما كنت تؤكد لها انك تحبها ، وعندما كانت تحضر لك الكتب ، وتشدو لك بالأغانى ، وتأتى ـ أكثر من مرة ـ وسط العواصف والثلوج لتراك ؟.. لقد كانت تبكى فى مرارة ، عندما يفوتها الحضور يوما واحدا ، لأن ذلك سوف يضايقك .. وقد شعرت ، فى ذلك الوقت ، أنها كانت مثال الطيبة والحنو معك ، ومع ذلك فأنت تصدق الآن أكاذيب والدك التى يلقى بها إليك ، برغم علمك بأنه يكرهكما معا ، وتنحاز إلى جانبه ضدها .. يا له من عرفان بالجميل ، يا سيد لينتون !.. أليس كذلك ؟

فتدلى ركن فمه ، وأخرج الحلوى من بين شفتيه ، بينما تابعت القول :

ـ هل تراها حضرت إلى « مرتفعات ويذرنج » لأنها تمقتك ؟.. وهلا فكرت فى الأمر بنفسك ؟.. أما عن أموالك ،

فانهـا لا تعلم أنك سـوف تقتنى شيئا .. ثم تقول انهـا مريضة ، ومع ذلك تتركها وحدها فى الطابق العلوى من منزل غريب عليها .. انت الذى طالمـا شعرت بقسوة الاهمال !.. كان فى وسعك أن ترثى لآلامك ومتاعبك ، وكانت هى ترثى لهما كذلك .. اما الآن فانك لا ترثى لآلامها ولا تريد أن تأخذك الشفقة عليها !.. اننى أذرف الدموع يا سيد هيثكليف كما ترى ـ انا العجوز المتهالكة التى لا تزيد عن مجرد خادم ـ بينما تدخر انت كل عبرة من دموعك لتذرفها على نفسك ، بعد أن تظاهرت بكل هذا الحب نحوها ، وكان الأولى بك أن تعبدها عبادة ، ثم ترقد هنا هادئا ناعم البال !.. آه !.. يا لك من غلام انانى حجرى الفؤاد !

فأجاب ساخطا :

ـ إننى لا أستطيع البقاء معها ، وإلا ما بقيت وحدى .. ولكنها لا تفتأ تبكى حتى لا أستطيع الاحتمال .. وهى لا تكف ولا تستريح من البكاء ، مهما هددتها باستدعاء والدى .. بل لقد دعوته مرة ، فأنذرها بانه سوف يكتم انفاسها ، إذا لم تخلد إلى السكون .. ولكنهـا بدأت من جديد ، بمجرد انصرافه من الغرفة ، تئن وتنتحب الليل بطوله ، برغم أننى ضقت بها ذرعا فصحت بها أن تسكت حتى أستطيع النوم !

ورأيت ذلك المخلوق التعس عاجزا عن الاشفاق على ابنة خاله ، والرثاء لعذابها الفكرى ، فسألته :

ـ هل مستر هيثكليف خارج الدار ؟

ـ إنه فى الفناء ، يتحـدث إلى الدكتور كينيث .. وهـو يقول ان خالى يعانى سكرات الموت حقيقة هذه المرة !.. وذلك يسرنى كثيرا لأننى سوف أصبح سيد « الجرانج » بعده !.. لقد كانت كاثرين تتشدق دائما بالحديث عنه كأنه « منزلها » .. كلا .. انه ليس ملكهـا .. انه ملكى أنا .. ويقول ابى ان كل شىء تقتنيه قد أصبح لى .. كتبها اللطيفة جميعا صارت كتبى .. لقد عرضت على أن تهبنى كتبها ، وطيورها الجميلة ، ومهرها « مينى » ، إذا أحضرت لها مفتاح الحجرة وتركتها تخرج من الدار .. ولكنى أخبرتها بأنه لم يعد لها ما تهبه أو تمنحه ، لأن كل ما لها أصبح ملكى !.. وعندئذ انخرطت فى البكاء ، ثم أمسكت بصورة صغيرة تعلقها فى عنقهـا ، وقالت إن هـذه لن تكون لى قط .. ورأيت صورتين ، فى إطار ذهبى أنيق ، إحداهما لأمهـا ، والثانية لخالى ، عندما كانا فى مقتبل العمر .. لقد حدث ذلك بالأمس فقط ، فقلت لها انهما أيضا قد أصبحتا ملكى ، وحاولت أن انتزعهما منهـا .. ولكن الخبيثة لم تمكنى من اخذهمـا ، ودفعتنى دفعة آذتنى .. فصحت مستنجدا ، وذلك يفزعها كثيرا ، فلما سمعت وقع اقدام ابى ، حطمت مفصـلات الرصيعة وقسمتها اثنين ، ثم أعطتنى صورة امها وحاولت إخفاء الصورة الأخرى .. ولكن أبى سأل عن جلية الخبر ، فشرحته له .. وعندئذ أخذ منى الصورة التى كانت معى ، وأمرها بأن تسلم الأخرى لى .. ولكنها أبت ، فضربها ـ هو ـ حتى ألقى بها على الأرض ، وانتزع الصورة من السلسلة وسحقها تحت قدمه ..

فقلت له ، وانا اكبت مشاعرى ، حتى أستدرجه إلى الكلام :

ـ وهل سرك أن تراها تضرب أمامك ؟

ـ لقد اغمضت جفونى !.. وانى اغمض جفونى دائما كلما رأيت أبى يضرب كلبا أو حصانا ، لأنه يفعل ذلك فى شدة وعنف !.. ومع ذلك فانى سررت فى بادىء الأمر ، ورأيتها تستحق العقاب لأنها دفعتنى بيدها .. ولكنها ، بعد أن انصرف أبى ، اخذتنى إلى النافذة ، وارتنى قطعا طويلا فى شدقها من الداخل ، تجاه أسنانها ، كما أرتنى فمها الملىء بالدماء .. وأخذت تجمع أشتات الصورة الممزقة ، ثم مضت فجلست ووجهها إلى الحائط ، ولم تخاطبنى بكلمة واحدة منذ تلك اللحظة !.. وخيل إلى ، فى بعض الأحيان ، انها لا تستطيع النطق من آلام فمها .. وما كنت أحب ان أفكر فى ذلك ، ولكنها مخلوقة شريرة لأنها لا تكف عن البكاء باستمرار .. وهى تبدو من الشحوب والضراوة بحيث اصبحت أخافها واخشاها !

ـ وهل فى وسعك أن تحصل على مفتاح الحجرة كلما اردت ؟

ـ نعم .. عندما أصعد إلى الطابق العلوى .. ولكنى لا استطيع الصعود الآن ..

ـ فى اية حجرة هى ؟

فصاح فى وجهى :

ـ آه ! .. لن اخبرك بمكانها قط .. إنه سرنا الذى لن يعرفه احد ، حتى هيرتون وزيللا لن يعرفاه !.. والآن اذهبى عنى ، فقد اتعبتنى .. اغربى عن وجهى !

ثم أدار وجهه نحو مسند الأريكة ، واغمض عينيه من جديد ..

وفضلت ان ارحل بغير إمهال ، دون ان أنشد لقاء مستر هيثكليف ، فاحضر نجدة من « الجرانج » لإنقاذ سيدتى الشابة .. فلما وصلت إلى هناك كانت دهشة زملائى الخدم لرؤيتى بالغة ، وكذلك فرحتهم بعودتى .. وعندما سمعوا أن سيدتهم الصغيرة بخير ، كاد اثنان أو ثلاثة منهم أن ينطلقوا مسرعين ليصيحوا بالنبأ السعيد أمام حجرة مستر ادجار ، ولكنى سبقتهم لحمل الخبر إليه بنفسى .. وشد ما ارتعت لما وجدته من تبدل حالته ، وما أصابه من تغيير ، حتى فى هذه الأيام القلائل !.. كان يرقد فى انتظار الموت ، اشبه بصورة من الحزن والاستسلام .. وكم كان يبدو فى ربيع الشباب عندئذ .. فعلى الرغم من أنه كان فى التاسعة والثلاثين من عمره ، إلا ان المرء كان يخاله اصغر من ذلك بعشر سنين على الأقل .. وكان يفكر فى كاثرين ، لأنه غمغم هاتفا باسمها ، فلمست يده فى رفق ، وهمست قائلة :

ـ كاثرين قادمة إليك أيها السيد العزيز .. انها على قيد الحياة ، وفى حالة طيبة ، وارجو ان تكون هنا الليلة ..

وسرت الرعدة فى بدنى عندما شهدت أول آثار هذا النبأ عليه .. فقد قام فى فراشه نصف قيام ، وراح يتلفت حواليه فى لهفة ولوعة ، ثم هوى فى فراشه مغشيا عليه .. وما ان افاق من غشيته حتى رويت له زيارتنا الإجبارية «للمرتفعات» ، وسجننا هناك .. قلت له إن هيثكليف ارغمنى على الدخول عنوة ، وهو ما لم يكن صحيحا كل الصحة .. ولم أتكلم إلا القليل ضد لينتون ، كذلك لم أصف له مسلك ابيه الوحشى .. فقد كانت نيتى الا اضيف المزيد من المرارة ـ لو استطعت ان أحول دون ذلك ـ إلى كأسه الطافحة ..

واستشف سيدى ان هدف عدوه ـ أو أحد اهدافه ـ كان يرمى إلى ضمان أموالها الخاصة لابنه ، فضلا عن الضيعة ، أو بالأحرى ضمانها لنفسه !.. أما لماذا تعجل الأمر ، ولم يصبر حتى وفاته ، فقد كان لغزا استعصى على سيدى حله .. لأنه كان يجهل أنه وابن أخته يوشكان ان يفارقا الدنيا معا ، كأنهما على ميعاد !.. ومهما يكن من أمر فقد راى من الأفضل ان يغير وصيته ، وبدلا من ان يترك ثروة كاثرين الخاصة تحت تصرفها المطلق ، فقد عزم على ان يضعها بين ايدى وكلاء يشرفون على استغلالها ، ويعطون كاثرين ريعها ما دامت على قيد الحياة ، ثم لأبنائها من بعدها إذا رزقت بأولاد .. وبهذه الطريقة لا تؤول إلى مستر هيثكليف إذا مات ابنه لينتون ..

وما ان تلقيت أوامره ، حتى أرسلت رجلا لإحضار المحامى. كما اوفدت أربعة غيره ، مزودين بالأسلحة الكافية ، ليطلبوا

سيدتى الصغيرة من سجانها .. وطالت غيبة الفريقين إلى وقت متأخر ، وكان الخادم الأول هو السابق فى العودة ، فقال ان مستر جرين المحامى لم يكن بمنزله عندما وصل إليه ، فاضطر إلى البقاء ساعتين فى انتظار عودته .. وان مستر جرين اخبره بأن لديه مهمة صغيرة فى القرية يتعين عليه اداؤها ولكنه سوف يكون فى « ثرشكروس جرانج » قبل الصباح .. كذلك عاد الرجال الأربعة وحدهم ، قائلين إن كاثرين مريضة ، بل شديدة المرض إلى حد لا يسمح لها بالخروج ، وان مستر هيثكليف لم يسمح لهم برؤيتها .. وقد اهلت اللوم والتأنيب على رؤوس اولئك الحمقى لتصديقهم هذه الرواية الكاذبة التى لم اكن أستطيع نقلها إلى السيد ..

وصممت على أن آخذ فرقة كاملة إلى « المرتفعات » عند الفجر ، فأثير عاصفة صاخبة ، ما لم تسلم لنا الأسيرة فى هدوء .. فقد نذرت لله ان يراها والدها قبل موته ، ثم نذرت مرة ثانية ـ لو أدى الأمر ـ ان أقتل ذلك الشيطان على عتبة داره وهو يحاول منعها !

ومن حسن الحظ اننى كفيت مؤونة الرحلة والمتاعب !.. فقد نزلت إلى الطابق الأرضى فى الساعة الثالثة لأحضر إبريقا من الماء ، وكنت أحمله فى يدى واجتاز الردهة عندما سمعت على الباب الأمامى طرقة حادة روعتنى وجعلتنى أقفز مجفلة .. ولكنى قلت اطمئن نفسى : « آه !.. انه جرين .. لا أحد يأتى الآن سوى جرين » .. ثم مضيت فى طريقى عازمة على

ان ارسل شخصا آخر ليفتح الباب .. ولكن الطرق تكرر فى إلحاح ، دون أن يكون حادا أو عاليا .. فوضعت الإبريق على حافة سياج الدرج ، وأسرعت افتح الباب بنفسى .. وكان قمر الخريف مشرقا يسطع بضيائه فى الخارج .. ولم أجد المحامى امامى .. بل كانت سيدتى الصغيرة المحبوبة هى التى اندفعت تحيط عنقى بذراعيها وهى تنتحب هاتفة :

ـ ايلين .. ايلين .. اما يزال ابى على قيد الحياة ؟

فصحت :

ـ نعم .. نعم يا ملاكى ، انه حى يرزق .. شكرا لله إذ أعادك إلينا سليمة ثانية ..

وكانت تريد أن تهرع إلى الطابق العلوى ، حيث حجرة مستر لينتون ، وهى على حالها من الأنفاس المبهورة .. ولكنى ارغمتها على الجلوس وسقيتها جرعة من المـاء ، وغسلت وجهها المتقع ، وتغاليت فى تجفيفه بمرولتى حتى بعثت فيه طيفا من التورد .. وقلت لها بعد ذلك اننى يجب ان اذهب إليه اولا فاخبره بوصولها .. وتوسلت إليها ان تقول له انها سوف تكون سعيدة مع هيثكليف الصغير .. فحملقت فى وجهى مشدوهة ، ولكنها سرعان ما ادركت لمـاذا نصحت لها بالكذب ، واكدت لى انها لن تشكو من شىء ..

ولم يكن فى طاقتى أن أحتمل مشهد اللقاء بينهما ، فوقفت خارج باب الحجرة زهـاء ربع سـاعة ، ثم غالبت ضعفى

وتسللت قريبا من الفراش .. ومع ذلك رأيت كل شىء هادئا يحوطه الجلال .. كان يأس كاثرين صامتا كفرحة أبيها .. كانت تسنده ، وفى أساريرها مسحة من الهدوء الظاهرى .. وكان يثبت انظاره فوق محياها ، وقد اتسعت عيناه سرورا ونشوة ..

وقد لفظ انفاسه الأخيرة ، يا مستر لوكوود ، فى سلام ودعة .. قبل وجنتها ، ثم غمغم يقول :

ـ إننى ذاهب إليها .. وسوف تأتين إلينا أنت الأخرى ، يا طفلتى المحبوبة !

وعندئذ سكن جسده ، فلم يتحرك أو ينطق بعدها ، ولكن بقيت فى عينيـه تلك النظرة الذاهلة الوضاءة ، حتى توقف نبضه فى خفاء ، وفاضت روحه فى سكينة وسلام .. فلم يكن احد ليستطيع أن يتبين اللحظة التى مات فيها على وجه التحديد ، إذ انقضى كل شىء دون أن يعـانى عذاب النزع الأخير !

وسواء اكانت كاثرين قد استنفدت كل ما لديها من دموع ، ام كان حزنهـا من العمق بحيث حال دون انسكابها ، فقد جلست متحجرة العينين حتى مطلع الشمس .. وظلت جالسة حتى الظهر ، وكان بودها لو تبقى مستغرقة فى أحزانها بجوار فراش الموت ، لولا ان الححت عليها فى أن تقوم لتنال قسطا



وعندئذ سكن جسده ، فلم يتحرك او ينطق بعدها ، ولكن بقيت فى عينيه تلك النظرة الذاهلة الوضاءة ..

من الراحة .. وحسنا فعلت ، إذ افلحت فى إخراجها من الغرفة ، فما كاد يحين موعد الفداء حتى ظهر المحامى ، بعد أن ذهب إلى « مرتفعات ويذرنج » ليتلقى التعليمات فيما يكون عليه مسلكه .. لقد باع الشقى نفسه إلى مستر هيثكليف ، وكان ذلك سبب توانيه عن تلبية دعوة سيدى له .. ومن حسن الحظ أن شيئا من الأمور الدنيوية لم يطرأ على فكر السيد ، فيزعجه ، بعد سعادته بمقدم ابنته ..

واخذ مستر جرين على عاتقه أن يامر وينهى فى كل شيء وكل إنسان فى المنزل !.. وانذر الخدم جميعا ، ما عداى ، بالفصل من الخدمة .. وكان بوده أن يذهب بسلطته المفوضة إلى حد الإلحاح فى عدم دفن ادجار لينتون بجوار زوجته ، بل فى المعبد بين أسرته .. ولكن وصية سيدى كانت قائمة لتحول دون ذلك ، فضلا عن احتجاجى الصاخب على أى إخلال بما تضمنته .. أما كاثرين ، مسز لينتون هيثكليف الآن ، فقد سمح لها بالبقاء فى « الجرانج » حتى يفارقه جثمان ابيها ، الذى اعدت الترتيبات لتشييع جنازته على عجل ..

وعلمت منها أن شدة حزنها ولوعتها قد حفزت لينتون إلى المجازفة بإخلاء سبيلها ! .. كانت قد سمعت جدال الرجال الذين بعثت بهم ، عند باب المنزل ، وادركت ما يرمى إليه هيثكليف بجوابه لهم ، فدفعهـا ذلك إلى حالة من اليأس الجنونى .. وكان لينتون قد نقل إلى البهو الصغير فى الطابق

العلوى على اثر انصرافى ، فتملكه الفزع إذ رآها على هذه الحال ، حتى حدا به إلى البحث عن المفتاح وإحضاره قبل أن يصعد والده .. وكان من الدهاء بحيث راح يوصد القفل ويفتحه مرة بعد مرة ، إلى أن تركه مفتوحا فى النهاية .. فلما حان موعد نومه ، توسل إلى ابيه أن يسمح له بالنوم مع هيرتون ، فاجيب إلى رغبته لأول مرة .. وتسللت كاثرين قبل انبلاج الصبح ، ولكنها لم تجرؤ على الخروج من الباب الرئيسى خشية ان تثير الكلاب الجاثمة فى الردهة ضجة تفضحها ، وإنما راحت ترتاد الحجرات الخالية واحدة بعد الأخرى تفحص نوافذها .. فلما بلغت حجرة أمها أخيرا ، استطاعت لحسن الحظ أن تخرج من نافذتها بسهولة ، وأن تهبط إلى الأرض مستعينة بشجرة الشربين الملاصقة للنافذة .. وقد لقى شريكها جزاءه لمساعدتها على الفرار ، برغم كل ما احتال به من حجج واهية !

* * *

الفصل التاسع والعشرون

جلست مع السيدة الصغيرة فى المكتبة ، مساء يوم تشييع الجنازة ، مستغرقتين فى التفكير ، فى حزن وأسى ـ يصحبهما اليأس عند كاثرين ـ فى الخسارة الفادحة التى ألمت بنا ، متخبطتين فى تكهناتنا عن المستقبل القاتم العبوس ..

وقد اتفق رأينا على أن خير مصير يمكن أن ينتظر كاثرين ، هو احتمال السماح لها بمتابعة إقامتها فى « الجرانج » ، وعلى الأقل أثناء حياة لينتون ، على أن يسمح له بالانضمام إليها هناك ، وأن أبقى معهما فى وظيفتى كمدبرة للمنزل ..

ولكن هذا الوضع كان يبدو أملا بعيد التصديق ، لما فيه من راحة لنا وملاءمة لرغباتنا .. ومع ذلك كنت ما ازال أرجو وأؤمل .. وبدأت أبدى ابتهاجى للاحتفاظ بمنزلى ، ووظيفتى ، وفوق كل شىء بسيدتى الصغيرة المحبوبة ، عندما قدم احد الخدم ـ من الذين أنذروا بالفصل ، وإن لم يكن قد غادر المنزل بعد ـ مندفعا نحونا ، معلنا أن « الشيطان هيثكليف » يعبر الفناء مقبلا نحو المنزل ، ويسألنا إن كان ينبغى أن يغلق الباب فى وجهه ؟

ولو كنا من الجنون بحيث نامره باتخاذ هذا الاجراء ، لما اتسع لنا الوقت لذلك .. فان هيثكليف لم يعن بالشكليات كالطرق على الباب ، أو إرسال من يستأذن له علينا .. فقد كان سيد الدار ، ومن ثم أضفى على نفسه ميزات سيد الدار

من شق طريقه فيها قدما ، ودون ان يلقى بأية كلمة .. وقد هداه صوت الخادم إلى المكتبة ، فدخل علينا وطرد الرجل ثم اغلق الباب !

كانت عين الحجرة التى استقبل فيها ، ضيفا ، منذ ثمانية عشر عاما .. وكان القمر نفسه يسترق الخطى من خلال النافذة .. بل إن المنظر الخارجى ، وقد اضفى الخريف عليه طابعه ، كان أشبه بمثيله فى تلك الليلة البعيدة .. ولم نكن قد أوقدنا الشموع بعد ، غير ان الحجرة كلها كانت واضحة المعالم .. حتى الصور المعلقة على الجدران .. صورة رأس مسز لينتون الجميل ، وراس زوجها الذى يشع رقة وبهاء .. وتقدم هيثكليف نحو المدفأة .. حتى هو لم يغيره الزمن إلا قليلا .. كان الرجل نفسه ، وإن ازداد وجهه شحوبا وصرامة ، وازداد جسمه بدانة نوعا ما .. ذلك كل ما تغير فيه ..

فلما رآته كاثرين ، نهضت واقفة واندفعت تهم بالخروج ، ولكنه امسك بذراعها وقال :

ـ قفى !.. لا فرار لك بعد الآن !.. وإلى أين تريدين الذهاب ؟.. لقد أتيت لآخذك إلى منزلك ، وارجو ان تكونى بعد ذلك ابنة مطيعة تقدرين واجباتك ، ولا تشجعين ابنى على مزيد من العصيان !.. لقد حرت كيف اعاقبه عندما كشفت دوره فى خطة فرارك ، فهو ارق من نسيج العنكبوت ، وقرصة واحدة قد تقضى عليه !.. ولكنك سترين من شكله

انه قد تلقى ما يستحقه .. فقد حملته إلى الطابق الأرضى ذات مساء ، وكان ذلك أول أمس ، واجلسته فى مقعده ، ولم امسه بيدى بعد ذلك قط !.. ولكنى أخرجت هيرتون من الحجرة ، وبقينا فيها وحدنا .. وبعد ساعتين ناديت جوزيف ليحمله إلى حجرة ثانية .. ومنذ ذلك الحين أصبح حضورى اشد إرهابا له من الأشباح المخوفة ! .. وأحسبه يرانى كثيرا ، وإن لم اكن قريبا منه ، فقد أخبرنى هيرتون أنه يستيقظ اثناء الليل ، ويظل يصرخ ساعة بأسرها ، ويناديك لتحميه منى !.. وسواء اكنت تحبين زوجك الغالى ، أم لا تحبينه ، فلابد لك من الحضور إلى البيت ، لانه الآن من شانك ، وإنى اتنازل لك عن كل ما يهمنى فيه !

فتدخلت لأقول له فى ضراعة :

ـ لماذا لا تدع كاثرين تستمر فى الإقامة هنا وترسل السيد لينتون ليعيش معها ؟.. انك لن تشعر بفقدهما ما دمت تكره كليهما .. أنهما لن يكونا إلا تنغيصا يوميا لقلبك الذى لا يشبه قلوب البشر فى شىء ..

فأجاب :

ـ إننى ابحث عن مستاجر « للجرانج » .. ثم انى اريد اولادى حولى لأطمئن عليهم .. وفضلا عن ذلك فان هذه الفتاة مدينة لى بخدمتها لقاء طعامها !.. ولن أدعها تعيش فى رفاهية وكسل بعد موت لينتون !.. هيا اسرعى واستعدى للذهاب معى الآن ، ولا تلجئينى إلى إرغامك على ذلك ؟

فقالت كاثرين :

ـ سوف اذهب ، فان لينتون هو كل ما ينبغى ان احبه فى هذا العالم .. ومع أنك بذلت كل ما فى وسعك لتنفره منى ، وتنفرنى منه ، فانك لا تستطيع الآن ان تجعل أحدا منا يمقت الآخر .. وانا اتحداك ان تسىء إليه عندما اكون معه ، واتحداك ان تستطيع إخافتى !

فأجاب هيثكليف :

ـ يا لك من بطلة متباهية !.. ولكنى لا أحبك إلى الحد الذى يجعلنى أسىء إليه بسببك .. انك انت التى ستجنين ثمرة العذاب كله .. ولست أنا الذى سأجعله بغيضا إليك ، وإنما هو شعوره الطيب وروحه الحلوة !.. انه يشعر بمرارة الصفراء لفرارك ، وما تبع ذلك من عواقب .. ولا تنتظرى منه الثناء على وفائك النبيل ، فقد سمعته يرسم صورة بهيجة لما يود ان يفعله بك ، لو أوتى مثل ما لى من قوة وبطش .. وها انت ترين ان النية موجودة لديه ، وأن ضعفه بالذات هو الذى سوف يجعله يشحذ ذهنه لاستنباط بديل عن القوة والعنف ..

فقالت كاثرين :

ـ إننى اعرف سوء طويته ، فهو ابنك ! .. ولكن يسرنى اننى أطيب منه قلبا ، حتى أصفح عن سوء نيته !.. وأعرف أيضا انه يحبنى ، ولذلك فاننى احبه .. اما انت يا مستر هيثكليف فلا تجد إنسانا يحبك .. ومهما سببت لنا من

شقاء ، فاننا نجد العزاء والسلوى ، ونشعر بحلاوة الانتقام كلما فكرنا فى أن قسوتك تنبعث من شقائك الذى يفوق شقاءنا .. انك شقى تعس !.. ألست كذلك حقا ؟.. انك وحيد كالشيطان ، حقود مثله !.. لن تجد انسانا يحبك ، او يبكى يوم مماتك .. وما كنت لأتمنى ان اكون فى مكانك ..

كانت كاثرين تتكلم فى شماتة مخيفة .. كانت تبدو كأنما قررت ان تتقمص روح الأسرة التى ستعيش بينها ، وتلتمس السرور من احزان اعدائها ..

فقال حموها :

ـ ستندمين حالا على انك على قيد الوجود ، إذا لبثت واقفة هنا دقيقة اخرى .. اذهبى أيتها الشريرة ، واحضرى متاعك !

فانسحبت فى ازدراء وتشامخ .. وبدأت أرجوه أثناء غيبتها أن يمنحنى مكان زيللا فى « المرتفعات » ، على أن أتنازل لها عن مركزى هنا .. ولكنه لم يقبل فى ذلك جدالا أو نقاشا ، بل امرنى بالسكوت .. وعندئذ ، وللمرة الأولى ، أتاح لنفسه ان يلقى لمحة على أرجاء الحجرة ، ونظرة إلى الصور .. وبعد ان تامل صورة مسز لينتون قليلا ، انبعث يقول :

ـ سوف يكون لى هذا المنزل ، لا لاننى فى حاجة إليه ، وإنما ..

ثم تحول بغتة إلى المدفاة ، وعلى وجهه ما أسميه ابتسامة لاننى لا اجد كلمة افضل اصفه بها ، واستطرد يقول :

ـ سوف احدثك عما فعلته بالأمس .. لقد جعلت اللحاد الذى كان يحفر قبر لينتون يزيل التراب عن غطاء تابوتها ، ثم فتحته !.. وقد خيل إلى لحظة أننى أود البقاء هناك ابدا ! عندما رايت وجهها ـ وهو ما يزال إلى الآن نفس الوجه ! ـ حتى لقى الرجل عناء فى زحزحتى ، بعد أن قال ان هبوب الهواء عليه سوف يفسده .. وعندئذ نزعت المسامير من أحد جانبى التابوت ، ثم أعدت الغطاء فوقه .. ولم يكن ذلك الجانب ناحية لينتون ، لعنة الله عليه !.. ليتهم لحموا تابوته بالرصاص !.. ثم رشـوت اللحـاد ان يزيح تابوتها جانبا ، عندما اوضع هناك بدورى ، وينزلنى بينهما !.. وسـوف أعمل على تنفيذ ذلك ، حتى إذا ما اتى شبح لينتون الينا لم يعرف أيهما تابوتى وأيهما تابوتها !

فهتفت قائلة :

ـ **إنكَ ممعن فى الشر يا مستر هيثكليف .. الم تخجل من إزعاج الموتى ؟**

ـ **إننى لم أزعج احدا يا نللى ! .. وإنما جلبت على نفسى** شيئا من الراحة !.. وسوف ازداد راحة وهدوءا الآن ، وستجدين فى هذا ضمانا أقوى لبقائى تحت اطباق الثرى عندما اذهب إلى هناك .. اتزعمين اننى ازعجتها ؟.. كلا .. إنما هى التى كانت تزعجنى وتقض مضجعى ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، خلال ثمانية عشر عاما متواصلة بلا انقطاع ، وبغير رحمة أو شفقة ، حتى الأمس !.. بالأمس فقط هدات

واسترحت .. واشتهيت ان انام نومتى الأخيرة بجوار هذه النائمة ، وقد كف قلبى عن الخفقان ، وتجمد خدى ملاصقا لخدها !

ـ ولو كان بدنها قد تحلل إلى تراب ، أو ما هو أسوأ من التراب ، فما الذى كنت تشتهيه عندئذ ؟

ـ ان اتحلل معها ، فاكون بذلك أسعد حالا .. هل تظنيننى اخشى اى تبدل من هذا النوع ؟.. لقد توقعت مثل هـذا التحول عندما رفعت غطاء التابوت .. ولكنى ازددت سرورا بأن التحلل لن يبدأ حتى اشاطرها مصيرها !.. فضلا عن اننى لو لم اتلق أمس ذلك الاحسـاس المحدد بأساريرها الجامدة ، لمـا فارقنى ابدا ذلك الشعور الغريب .. لقد بدا على نحو عجيب .. فأنت تعلمين أننى كدت أجن بعد موتها ، وكنت ابتهل إليها بلا انقطاع ، من الفجر إلى الفجر ، بأن تعيد لى روحها !.. كنت قوى الإيمان بالأشباح ، شديد الاعتقاد بأنها تستطيع أن توجد بيننا ، بل وتفعل ذلك فعلا.. وفى اليوم الذى دفنت فيه كاثرين ، انهمر الثلج على غير العادة .. وذهبت فى المساء إلى فناء الكنيسة ، وكانت ليلة باردة كئيبة ، كليالى الشتاء .. كان المكان مقفرا موحشا ، فلم اخش مجىء زوجها الأبله لأنه ما كان ليترك جحره ليجول خارجه فى هذه الساعة المتأخرة !.. ولم اخش قدوم غيره ، فما من احد لديه ما يدفعه إلى الحضور إلى هناك .. فلما الفيت نفسى وحدى ، وكنت أعلم أن ستة أقدام من التراب الرخو هى الحـاجز الوحيد بينى وبينها ، قلت لنفسى :

« سوف آخذها بين ذراعى ثانية !.. ولو وجدت جسدها باردا فسأقول ان هـذه الريح الشمالية هى التى تبعث القشعريرة فى أوصالى ! .. وإذا وجدتها ساكنة بلا حراك ، فانه النوم العميق ، ولا شىء غيره !.. »

« ثم أحضرت معولا من مخزن الكنيسـة ، واخذت احفر التراب بكل قواى .. وارتطم المعول بغطـاء الصندوق ، فألقيت بالمعول بعيدا ، واكملت الحفر بأصابعى ! .. وبدا الخشب يطقطق حول المسامير بينما كنت احاول نزعها ، واوشكت ان ابلغ غايتى ، عندما خيل إلى بغتة اننى اسمع تنهدا كالأنين ينبعث من شخص ما ينحنى فوقى ، عند حافة القبر !.. فقلت لنفسى : « لو استطعت فقط ان انزع هذا الغطاء ، فليت ذلك الشخص يهيل التراب فوقى فيدفننا معـا ! » .. واقبلت على مهمتى فى يأس المستميت ، فاذا بأنين آخر ينبعث ملاصقا لأذنى .. وخيل إلى اننى احس بالأنفاس الدافئة تهب على وجهى ، وتزيح لفحات الهـواء القارس .. كنت اعلم انه ما من مخلوق من لحم ودم يقف بجانبى !.. ولكن ارايت إذ تشعرين عن يقين باقترابك من جسم مادى فى الظلام ، دون ان يمكنك تمييزه ؟.. هكذا شعرت عن يقين بوجود كائى هناك ، لا فى القبر تحتى ، وإنما فوق الأرض معى ! .. وعندئذ تدفق من قلبى شعور فجائى براحة عميقة غمرت أوصالى جميعا ، وتخليت من فورى عن عملى الشنيع ، وشعرت بالعزاء يملؤنى ، عزاء صامت مريح .. كنت أشعر بوجودها معى ، وكان هذا الشعور يلازمنى بينما

كنت اردم القبر من جديد ، ويقود خطواتى فى عودتى إلى المنزل .. لك ان تضحكى ، إذا شئت ، ولكنى كنت واثقا من اننى سوف اراها هناك ..

« كنت واثقا من انها معى ، فلم املك إلا ان اتحدث إليها .. فلما بلغت « المرتفعات » اندفعت إلى الباب ملهوفا ، فاذا به موصد من الخارج .. واذكر ان ذلك الوغد هيندلى ايرنشو وزوجتى الحمقاء همـا اللذان قصـدا منعى من الدخول .. واذكر كذلك اننى تمهلت ريثما اشبعت هيندلى ضربا وركلا حتى تقطعت انفاسـه ، ثم أسرعت إلى الطابق العلوى ، إلى حجرتى وحجرتها ، فأخذت اتطلع حولى فى لهفة وحنق .. كنت أشعر بها إلى جانبى .. حتى لقد كدت أراها .. ومع ذلك لم أستطع أن أراها !.. ولابد ان يكون العرق قد انبثق من مسامى دما قانيا ، من لوعة حنينى إليها ، ومن حرارة ضراعتى وتوسلاتى بأن تجود على بنظرة أو لمحة إليهـا .. ولكنى لم انل واحدة !.. اظهرت نفسها ـ كما كانت كثيرا وهى على قيد الحياة ـ شيطانا رجيما معى .. ومنذ ذلك الحين أصبحت لعبة هذا العذاب الذى يفوق احتمال البشر ، يشتد حينا ويلين حينـا آخر .. كنت اعيش فى جحيم من توتر اعصـابى على هذا النحو ، ولولا انهـا متينة كالأوتار لتخاذلت منـذ زمن بعيد ، ولأضحت فى مثل رخاوة أعصاب لينتون !.. وعنـدما كنت اجلس فى حجرة الجلوس مع هيرتون ، كان يخيـل إلى اننى لو خرجت لالتقيت بهـا .. وعندما كنت اسير وسط البرارى ، كنت احسبنى سألقاها

راجعة إلى المنزل !.. كنت كلما غادرت الدار ، تعجلت عودتى إليها ، ليقينى انها لابد ان تكون فى مكان ما فى «المرتفعات» !.. وعندما نمت فى حجرتها ، وجدتنى اغلب على امرى واخرج منها إلى غير رجعة .. لم يقر لى قرار او يهنأ لى مضجع هناك .. فما ان اغمض عينى ، حتى كنت احس بها إما خارج النافذة ، او تزيح حواجز خزانة الفراش ، او داخلة إلى الحجرة .. بل كنت احس بها تريح راسها الحبيب على الوسادة بجانب راسى ، مثلما كانت تفعل وهى طفلة .. فكنت افتح عينى لأراها .. وهكذا رحت افتحهما واغمضهما مائة مرة فى ليلة واحدة ، فكنت لا القى إلا الحسرة وخيبة الأمل .. كانت لى عذابا مقيما !.. وكثيرا ما كان انيني ينبعث عاليا حتى لا اشك فى أن ذلك الوغد العجوز جوزيف اعتقد ان ضميرى قد انقلب فى صدرى عدوا ضاريا !.. اما الآن ، بعد ان رأيتها ، فقد سكن روعى وارتحت قليلا .. كان وسيلة غريبة لقتلى والقضاء على ـ لا بوصة بعد بوصة ، بل بمثل قلامة الظفر او حد الشفرة ـ أن تظل تخادعنى وتلوح لى بطيف أمل كالسراب ، خلال ثمانية عشر عاما ! »

وسكت مستر هيثكليف ، واخذ يجفف جبينه .. كان شعره ملتصقا به ، وقد بلله العرق .. وكانت عيناه مركزتين على جمرات النار المتقدة فى المدفأة .. اما حاجباه فلم يكونا معقودين كعادته ، بل كانا مرتفعين نحو صدغيه ، مما خفف من جهامة محياه ـ وإن كانا يضفيان عليه مسحة غريبة من الانشغال والقلق ، ومظهرا أليما من التوتر العقلى والاستغراق

فى موضوع واحد .. كان فى الواقع لا يكاد يخاطبنى بحديثه ، فلزمت الصمت ولم ارد عليه .. وكنت لا احب ان اسمعه يتكلم ..

وبعد لحظة وجيزة ، عاد إلى تأمله للصورة ، ثم انزلها واسندها إلى ظهر الأريكة ، ليسهل عليه تأملها فى امعان .. وبينما كان مستغرقا فى هذه المهمة ، دخلت كاثرين واعلنت انها على استعداد للذهاب لا تنتظر إلا اسراج مهرها ..

فقال هيثكليف لى وهو يشير إلى الصورة :

ـ ارسلى هذه لى غدا ..

ثم أردف قائلا لكاثرين :

ـ يمكنك ان تستغنى عن المهر ، فانها أمسية جميلة .. ثم انك لن تحتاجى إلى جياد فى « مرتفعات ويذرنج » ، لأن اى رحلة تخرجين فيها ، لن تستخدمى فيها غير قدميك .. هيا بنا !

فغمغمت سيدتى العزيزة الصغيرة :

ـ وداعا يا ايلين !

ثم مالت فوقى تقبلنى ، فأحسست بشفتيها باردتين كالثلج .. واردفت قائلة :

ـ لا تنسى ان تاتى لزيارتى يا ايلين !

فصاح والدها الجديد :

ـ إياك ان تفعلى شيئا كهذا يا مسز دين !.. وعندما اريد ان اتحدث إليك فسوف احضر إلى هنا !.. فلست أحب ان تتجسسى فى منزلى !

واشار إليها ان تتقدمه ، فأطاعته بعد ان تلفتت إلى الخلف لتلقى نظرة الوداع على الحجرة ، نظرة قطعت نياط قلبى .. ورحت أرقبهما من النافذة وهمـا يعبران الحديقة ، فرايت هيثكليف يتأبط ذراع كاثرين برغم معارضتها لذلك فى البداية ، ثم يسوقها فى خطى سريعة واسـعة نحو الممر المؤدى إلى الطريق ، والذى ما لبثت أشجاره ان أخفتهما عن ناظرى .

* * *

الفصل الثلاثون

قمت بزيارة « المرتفعات » ولكنى لم أر سيدتى منذ رحيلها عن منزلها .. فقد امسك جوزيف الباب عندما ذهبت إلى هناك لأسأل عنها ولم يسمح لى باجتياز العتبة .. قال ان مسز لينتون معتكفة فى حجرتها ، وان السيد ليس فى المنزل .. ولولا ان زيللا اخبرتنى عن الحال التى يعيشون عليها ، لظللت اجهل من منهم قد مات ومن ما يزال على قيد الحياة .. وتعتقـد زيللا أن كاثرين متعجرفة متعـالية ، وحدست من حديثها انها لا تحبها .. فقد طلبت اليها سيدتى الصغيرة أن تساعدها فى شئونها الخاصة ، عند أول عهدها بالدار ، ولكن مستر هيثكليف امر الخادم بأن تعنى بعملها فحسب ، وان تدع زوجة ابنه تنهض بشئونها بنفسها .. وأذعنت زيللا لأمره راضية فرحة ، إذ هى امرأة ضيقة الأفق شديدة الأثرة .. ولكن كاثرين اظهرت غضبا كغضب الأطفـال لهذا الاهمال ، وقابلته باحتقار زيللا وازدرائها ، وسلكتها ضمن اعدائهـا ، كأنما اساءت إليها اساءة لا تغتفر .. وقد كان لى مع زيللا حديث طويل منذ نحو ستة أسابيع ، قبل مقدمك ، عندما اجتمعنا ذات يوم فوق البرارى ، وهاك ما أخبرتنى به ..

« كان اول ما فعلته مسز لينتون عند وصولها إلى المرتفعات ان انطلقت مهرعة إلى الطابق العلوى ، دون أن تعنى حتى بالقاء السلام على او على جوزيف ، ثم حبست نفسها فى حجرة لينتون وظلت بها حتى الصباح .. وعندئذ ، وبينما كان السيد

وايرنشو يتناولان طعام الافطار ، دخلت عليهما حجرة الجلوس وسألت ، وهى ترتعد ، ان كان من الممكن استدعاء الطبيب ، فان ابن عمتها قد اشتد عليه المرض ..

فاجابها هيثكليف :

ـ اننا نعرف ذلك .. ولكن حياته لا تساوى مليما ، وان انفق عليه مليما واحدا ..

فقالت : ولكنى لا ادرى ماذا افعل ، وإذا لم الق مساعدة من احد فسوف يموت سريعا .

فصاح بها السيد :

ـ اخرجى من الحجرة ، ولا تدعينى اسمع كلمة اخرى عنه ابدا .. ان احدا هنا لا يبالى بما يصيبه .. فان كنت مهتمة به فاسهرى عليـه وتولى تمريضه ، وان كنت لا يهمك امره فأوصدى عليه باب حجرته واتركيه وشانه !

« وعندئذ بدات ترهقنى بأمره ، فقلت لها اننى رايت من العناء ما يكفينى مع هذا المخلوق النكد ، وان لكل منا مهمتها وعملها الآن ، ومهمتها هى أن تسهر عليـه وتخدمه ، فقد امرنى مستر هيثكليف بأن اترك هذا العمل لها ..

اما كيف كانا يعيشان معا ، فهذا ما لا اعرفه .. ولكن يخيل إلى انه جعل حياتها جحيما ، وكان لا يكف عن العويل والأنين بالليل وبالنهار ، وبذلك حرمها الراحة إلا اقل القليل .. وذلك شيء يتبينه المرء من وجهها الشاحب المتقع ، ومن

عينيها المثقلتين المكدودتين .. وكانت احيانا تاتى إلى المطبخ شاردة اللب ، وتبدو كأنما تتلهف على طلب المعونة .. ولكنى لم اكن لأعصى أوامر السيد .. فلست اجرؤ قط على عصيان أوامره يا مسز دين !.. ومع اننى كنت ارى من الخطأ عدم دعوة الدكتور كينيث لفحص المريض ، ولكن لم يكن من شانى ان انصح بذلك او اتذمر منه ، فقد ابيت دائما ان اتدخل فى هذه الأمور .. وحدث مرة او مرتين ، ان كنت افتح باب حجرتى ثانية ـ بعد ان ناوى إلى مخادعنا ـ فأجدها جالسة تبكى فى مرارة فوق قمة الدرج ، وعندئذ اسرع باغلاق باب الحجرة ثانية ، خشية ان يدفعنى تأثرى إلى التدخل .. كنت وقتئذ اشفق عليها وارثى لحالها ، ولكنى ما رغبت فى ان افقد مركزى كما تعلمين ..

واخيرا ، اتت إلى حجرتى ذات ليلة فى جراة ، وكادت تفقدنى عقلى من الخوف عندما قالت :

ـ أخبرى مستر هيثكليف بأن ابنه يحتضر .. فأنا واثقة من ذلك هذه المرة .. هيا انهضى واذهبى إليه !

وما أن نطقت بهذه الكلمات حتى اختفت عن انظارى .. واقول لك الحق اننى لم اتحرك من فراشى زهاء ربع ساعة قضيته ارهف السمع وأرتعد من الخوف .. ولكنى لم اسمع شيئا .. كان المنزل يخيم عليه صمت عميق .. فقلت لنفسى : « لقد اخطات ، ولابد أنه افاق من النوبة التى غشيته !.. لذلك لا حاجة بى إلى إزعاجهم » .. وغلبنى النعاس ، ولكن نومى قطعه ثانية رنين الجرس وهو يدوى حادا رهيبا ـ وهو

الجرس الوحيد الذى بالمنزل ، وقد وضع فى حجرة لينتون خصيصا له ـ وسمعت السيد ينادينى لأرى ما هنالك ، ولانذرهم بانه لا يود أن تتكرر هذه الضجة ثانية ..

وعندئذ أبلغته رسالة كاثرين ، فراح يسب ويلعن ، وما لبث أن خرج بعد دقائق قليلة ، وفى يده شمعة موقدة ، ثم تقدم إلى حجرتهما .. فتبعته .. كانت كاثرين تجلس بجوار الفراش ، ويداها مطبقتان فوق ركبتيها .. ومضى حموها نحو الفراش ، ورفع الشمعة امام وجه لينتون ، وتطلع إليه ، ثم تحسسه .. وبعد ذلك تحول نحوها قائلا :

ـ بماذا تحسين الآن يا كاثرين ؟

فلم تنبس ببنت شفة ، فعاد يقول :

ـ بماذا تحسين الآن ؟

وعندئذ اجابته :

ـ انه اصبح بمنجاة منك ، وغدوت حرة !.. وكان ينبغى ان اكون راضية ، ولكن ..

ثم اردفت فى مرارة لا تستطيع كتمانها :

ـ ولكنك تركتنى اكافح الموت طويلا ، حتى لم اعد احس او ارى سوى الموت .. اننى احس كأننى انا الميتة !

والواقع انها كانت تبدو اشبه بذلك ، فأحضرت إليها شيئا من النبيذ .. وكان هيرتون وجوزيف ، اللذان ايقظهما رنين

الجرس ووقع اقدامنا ، ثم سمعا كلامنا من خارج الحجرة ، قد دخلا علينا .. كان جوزيف ، فيما أعتقد ، مسرورا للتخلص من الفتى .. أما هيرتون فكان يبدو منزعجا قليلا ، وان كان اهتمامه بالحملقة فى وجه كاثرين ، أكثر من تفكيره فى لينتون .. ولكن السيد امره بالعودة إلى فراشه ثانية ، لأننا فى غير حاجة إلى معونته .. وبعد ذلك أمر جوزيف بنقل الجثة إلى حجرته ، وطلب إلى ان اعود إلى غرفتى .. وهكذا تركنا مسز لينتون وحدها ..

« وارسلنى فى الصباح لأخبرها بأنها يجب أن تنزل كى تتناول افطارها .. ولكنها كانت قد خلعت ثيابها وبدا عليها كأنما تهم بالذهاب إلى الفراش ، فقالت لى انها مريضة لا تستطيع النزول ، وهو شيء لم يأخذنى العجب منه .. فلما أبلغت ذلك لمستر هيثكليف أجابنى قائلا :

ـ حسنا .. دعيها كذلك إلى ما بعد تشييع الجنازة ، وعليك أن تذهبى إليها بين الحين والآخر لتحملى إليها ما يلزمها .. ولكن أخبرينى بمجرد أن تريها تحسنت .. » .

وقد مكثت كاثى معتكفة فى حجرتها اسبوعين ، حسبما ذكرت زيللا ، التى كانت تزورها مرتين كل يوم ، وارادت أن تتودد إليها ، ولكن محاولاتها من مظاهر العطف المتزايد كانت تصد على الفور فى كبرياء وترفع ..

وصعد إليها هيثكليف مرة ليطلعها على وصية لينتون .. وكان قد أوصى بكل ما كان يملكه ، وما كانت تملكه هى ، من

أموال منقولة ، إلى ابيه .. فقد أرغم المسكين ، أو اغرى ، على ذلك خلال الأسبوع الذى غابته فى منزلها عند موت أبيها .. اما الأرض والعقار فلم يستطع ادخالهما فى الوصية لانه كان ما يزال قاصرا لا يمكنه التصرف فيهما .. وعلى كل حال فان مستر هيثكليف طالب باثبات إرثه وإرث زوجة ابنه فيهما ، وعين مشرفا على نصيبها فى التركة .. ومهما يكن من امر فان كاثرين لم تكن تستطيع التعرض له فى حيازته لممتلكاتها ، إذ كانت مجردة من الأصدقاء والنقود ..

ومضت زيللا تقول لى : « لم يكن احد يقرب باب حجرتها قط – عدا المرة التى صعد إليها فيهـا مستر هيثكليف – سواى .. كذلك لم يكن احد يسأل عنها البتة .. وكانت المناسبة الأولى التى نزلت فيها إلى حجرة الجلوس ، بعد ظهر يوم احد ، وكنت قد حملت إليها طعام الغداء ، فوجدتها تبكى وتقول انها لم تعد تحتمل البقـاء فى البرد .. فأخبرتها بأن السيد يزمع الذهاب إلى « ثرشكروس جرانج » ، وأن وجود ايرنشو ووجودى لا يجب أن يحول دون نزولها .. وهكذا ماكادت تسمع حوافر جواد هيثكليف ينطلق به خارجا ، حتى ظهرت فى حجرة الجلوس ، مجللة بالسواد ، وقد ازاحت غدائرها الذهبية وراء اذنيها فى بسـاطة كأنهـا واحدة من المتدينات المتزمتات .. فلم يكن فى وسعها ان ترخى غدائرها كعادتها .. وكنت وجوزيف نذهب عادة إلى الهيكل فى أيام الآحاد .. (قالت مسز دين مفسرة أن الكنيسـة الآن بغير قس ، ولذلك يستخدمون مكان العماد فى جيمرتون هيكلا للصلاة) .. وكان جوزيف قد ذهب يومئـذ ، فرأيت من

الأوفق أن امكث بالمنزل .. فان الأفضل دائما أن يظل الشباب تحت اشراف شخص أكبر سنا !.. كما أن هيرتون ، مع حيائه وخجله ، ليس مثالا للمسلك الرقيق .. وقد أفهمته أن ابنة عمته قد تحضر لتجلس معنا ، وانها اعتادت دائما أن ترى يوم الأحد مبجلا .. ونصحت له بأن يدع العبث ببنادقه وغيرها من مشاغله المنزلية ، مدة مكثهـا معنا .. وما كاد يسمع ذلك النبأ حتى تورد وجهه وراح ينظر إلى ثيابه ويديه ، وسرعان ما اختفت آثار الشحم والبارود فى دقيقة واحدة .. ففهمت انه ينوى الجلوس فى صحبتها ، وحدست من مسلكه انه يريد أن يكون لطيف المعشر ، حسن المظهر .. وعنـدئذ ضحكت ضحكة رنانة لا أجرؤ على مثلها فى وجود السيد ، ثم عرضت عليه ان أساعده فى إصلاح شأنه – إذا اراد – بعد أن رحت أمازحه وأضحك من ارتباكه .. فبدا عليه الغضب وزمجر ساخطا لاعنا !

واستطردت زيللا تقول ، وقد رأت عدم ارتياحى لمسلكها :

– لعلك يا مسز دين ترين سـيدتك الصغيرة من الرقة والثقافة بحيث لا تليق بمستر هيرتون !.. ولعلك على حق !.. ولكنى شد ما وددت أن اطامن من كبريائها قليلا .. ثم ما الذى ستنفعها به ثقافتها ورقتها الآن ؟.. انها فقيرة مثلك ومثلى .. بل اجزم انهـا أشـد فقرا ؟.. فانت تدخرين مرتبك ، وبدات انا احذو حذوك !

وسمح هيرتون لزيللا بأن تساعده فى إصـلاح هندامه ، فراحت تطريه وتتملقه لتجعله رضى الخلق مبسوط المزاج ..

وهكذا ما إن اتت كاثرين ، حتى كان قد نسى إهاناتها السابقة له ، واقبل عليها يحاول أن يبدو لطيفا معها ، حسبما روت لى مدبرة المنزل إذ قالت :

ـ دخلت السيدة الصغيرة ترتعد من البرد كأنها قطعة من الجليد ، وترفع رأسها شامخة كأنها إحدى الأميرات .. ونهضت من مجلسى ، وعرضت عليها مقعدى الكبير ذا المسندين .. كلا .. لقد اشاحت بوجهها ، وشمخت بأنفها استنكارا لتلطفى !.. ونهض ايرنشو كذلك ، وطلب إليها أن تأتى إلى الأريكة فتجلس ملاصقة للمدفأة ، قائلا انه واثق من انها تكاد تموت من البرد !

فأجابته وهى تضغط على الكلمة الأخيرة بكل ما وسعها من ازدراء :

ـ لقد ظللت شهرا او اكثر أكاد أموت من البرد !

« ثم أحضرت لنفسها مقعدا وجلست بعيدا عنا كلينا .. وظلت تجلس ساكنة حتى سرى الدفء فى بدنها ، وعندئذ بدات تجيل انظارها حولها ، فاكتشفت عددا من الكتب فوق رف الصوان ، فاستوت قائمة على قدميها ثانية ، وحاولت أن تمد ذراعها لتحضرها ، ولكن الكتب كانت مرتفعة عن متناولها .. وبعد ان لبث ابن خالها يرقب محاولاتها برهة ، استجمع شجاعته اخيرا ونهض لمساعدتها .. فامسكت بثوبها وتلقت فيه أول مجموعة من الكتب وصلت إليها يده ..

« كان ذلك تقدما باهرا من الفتى !.. ومع انها لم تشكره ،

إلا انه كان يشعر بأنه قد جوزى خير الجزاء بقبولها مساعدته .. ووافته الجراة ليقف خلفها وهى تقلب فى الكتب ، ثم تمادى إلى درجة الانحناء ليشير إلى ما يثير اهتمامه فى بعض الصور القديمة التى تتضمنها .. ولم تروعه تلك الطريقة الوقحة التى كانت تجذب بها الصفحة من تحت أصبعه ، بل كان يكتفى بأن يبتعد قليلا إلى الخلف ، ثم يتطلع إليها بدلا من الكتاب !.. واستمرت تقرا ، او تبحث عن شىء تقرؤه .. وبدا اهتمامه يتركز تدريجيا فى دراسة غدائرها الحريرية الكثيفة ، فلم يكن يستطيع رؤية وجهها ، كما انها كانت لا تستطيع ان تراه !.. ولعله لم يكن منتبها تماما لما اقدم عليه ، وانما كان مثله مثل طفل يجتذبه لهب الشمعة ، عندما تحول من مجرد النظر إلى اللمس .. فقد مد يده وربت على إحدى غدائرها فى رفق بالغ كأنه يداعب عصفورا .. وكأنما طعنها بسكين فى عنقها !.. فقد استدارت إلى الخلف ثائرة ، وهى تصيح به فى نبرات تفيض ازدراء واشمئزازا :

ـ امش من هنا حالا !.. كيف تجرؤ على أن تلمسنى ؟.. ولماذا تقف هنا ؟.. اننى لا اطيقك البتة !.. وسوف أعود إلى حجرتى ثانية ، إذا اقتربت منى بعد ذلك !

« فتراجع مستر هيرتون ، وقد اكتسى وجهه طابعا من البلاهة ، ثم جلس على الأريكة فى هدوء وسكون ، بينما استمرت تقلب صفحات كتبها اكثر من نصف ساعة .. واخيرا قام هيرتون ودنا منى ليهمس فى اذنى :

ـ اسأليها ان تقرا لنا يا زيلا ، فقد جمدت اطرافى من

الجلوس ساكنا لا افعل شيئا .. ثم اننى احب .. أعنى يمكن ان احب سماع صوتها .. ولكن لا تقولى اننى طلبت ذلك ، بل اجعلى السؤال من تلقاء نفسك ..

فقلت فى الحال :

ـ ان مستر هيرتون يود لو قرأت لنا قليلا يا سيدتى .. وسوف يقدر لك هذا العطف ، ويشكرك عليه كثيرا ..

فقطبت حاجبيها ، ثم رفعت راسها ، لتجيب :

ـ ان مستر هيرتون ، وسائر عصابتكم جميعا ، سوف تحسنون صنعا لو ادركتم أننى أرفض كل زعم لكم بهذا العطف الذى تجدون من النفاق ما يكفى لإظهاره نحوى .. اننى احتقركم ، ولن يكون لدى ما أقوله لأى واحد منكم .. فعندما كنت على استعداد لأن أهب حياتى لقاء كلمة عطف واحدة ، أو مجرد رؤية وجه واحد منكم ، ظللتم جميعا بعيدا عنى ، وتجنبتمونى !.. ولكنى لن أشكو إليكم !.. وما دفعنى إلى النزول إلى هنا سوى البرد ، لا الرغبة فى التسلية ولا فى الاستمتاع بصحبتكم !

فغمغم ايرنشو :

ـ ما الذى كان فى وسعى ان افعله ؟.. وكيف يمكن ان الام ..؟

فقاطعته مسز هيثكليف :

ـ أوه !.. اننى استثنيك مما كنت اقول .. فما شعرت البتة بأنى فى حاجة إلى مثل اهتمامك !



وكانما طعنها بسكين فى عنقها !.. فقد استدارت الى الخلف ثائرة ، وهى تصيح به فى نبرات تفيض ازدراء واشمزازا ..

فقال :

ـ ولكنى عرضت اكثر من مرة ، وسألت مستر هيثكليف ان يسمح لى بأن ارعاك ..

وكأنما كان يزيد قحتها وسلاطتها ضراما ، إذ اجابته مقاطعة :

ـ اصمت !.. خير لى ان اغادر الدار ، او اذهب إلى اى مكان ، من ان يطرق صوتك الكريه مسامعى !

فغمغم هيرتون قائلا انه من ناحيته يرى ان تذهب إلى الجحيم !.. ثم نهض وتناول بندقيته المعلقة ، وحرر نفسه من تقاليد يوم الأحد ، فلم يعد يتقيد بها بعد ذلك !.. ثم مضى يتحدث إلى فى انطلاق وتحرر ، وسرعان ما رات من الأوفق أن تنسحب إلى وحدتها وعزلتها .. ولكن اشتداد الصقيع بعد ذلك ارغمها ، برغم كبريائها ، على التنازل وارتضاء رفقتنا يوما بعد يوم .. اما انا فقد عنيت بأن اجنب نفسى الازدراء والاحتقار لقاء ما ابديته نحوها من طيب الشمائل ، فاصبحت منذ ذلك الحين فى مثل جمودها وتصلبها .. والواقع انها لا تلقى بيننا من يحبها او يودها .. فهى لا تستحق حبا او ودا .. لأن اقل كلمة يقولها احدنا لها ، تجعلها تتلوى فى وجهه دون أن توقر احدا !.. بل انها لا تتورع عن ان تثور فى وجه السيد نفسه على نحو يجعله ينهال عليها لطما وصفعا .. وكلما ازداد إيذاؤه لها ، كلما ازداد حقدها وكثرت السموم التى تنفثها .. » .

ولقد صممت ، فى بادىء الأمر ، عندما سمعت حديث زيللا هذا ، على أن اترك وظيفتى وأستأجر كوخا ، واحضر كاثرين لتعيش معى فيه .. ولكن مستر هيثكليف لن يوافق على ذلك إلا مثلما يرضى بأن يسكن هيرتون منزلا مستقلا !.. ولست أرى علاجا لحالتها الآن ، إلا إذا استطاعت الزواج ثانية ، وهو شىء ليس فى قدرتى أن أحققه !

* * *

وهكذا انتهت قصة مسز دين عن هيثكليف وأسرته ..

اما انا ، فعلى الرغم من تكهن الطبيب ، فقد بدأت استعيد قواى فى خطى حثيثة .. ومع اننا ما نزال فى الأسبوع الثانى من شهر يناير ، فقد عزمت على الخروج بعد يوم أو اثنين ، فأمتطى جوادا ، وأذهب إلى « مرتفعات ويذرنج » لأخبر المالك بأننى أعتزم قضاء الشهور الستة القادمة فى لندن ، وأن له ، إذا شاء ، أن يبحث عن مستأجر آخر « للجرانج » بعد شهر اكتوبر .. فلن اقضى شتاء آخر فى هذه المنطقة مهما أعطيت !!

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

كان الأمس يوما مشرق الضياء ، ساكن الريح ، قارس البرد .. وقد ذهبت إلى « المرتفعات » كما انتويت ، ورجتنى مدبرة منزلى ان أحمل رقعة صغيرة منها إلى سيدتها الشابة ، فلم ارفض رجاءها ، لأن المرأة الطيبة لم تكن تدرك ما فى رجائها هذا من غرابة وشذوذ ..

ووجدت باب المنزل الخارجى مفتوحا ، ولكن البوابة المنيعة كانت موصدة ، كما وجدتها فى زيارتى السابقة .. فطرقت فوقها بيدى ، ودعوت هيرتون ايرنشو من حيث كان يعمل بين أحواض الحديقة ، فرفع السلسلة التى كانت موصدة بها ، ودخلت .. وقد وجدت الفتى وسيما لطيفا ، بقدر ما تكون الوسامة والرقة الريفية .. وقد اعرته انتباها خاصا هذه المرة ، ولكنه يومئذ كان يفعل كل ما فى وسعه ليظهر اقل القليل من ميزاته !

وسألته ان كان مستر هيثكليف موجودا ، فأجابنى : « كلا .. ولكنه سيحضر فى موعد الغداء » وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقتئذ ، فأعلنت عزمى على الدخول وانتظاره .. وما كدت أقول ذلك حتى رمى بأدواته ، وصحبنى إلى الداخل ، لا ليبقى فى رفقتى بديلا لمضيفى ، بل ليقوم بمهمة كلب الحراسة ..

دخلنا إلى حجرة الجلوس معا .. وكانت كاثرين هناك ، تشغل وقتها فيما يجدى ، إذ كانت تعد بعض الخضر للوجبة

المقبلة !.. وكانت تبدو أكثر تجهما وأقل بشاشة مما رأيتها أول مرة .. بل انها لم ترفع عينيها لتنظر إلى ، واستمرت فى عملها بنفس الاغفال لمظاهر اللياقة المتعارف عليها ، الذى لمسته منها من قبل .. فلم ترد انحناءتى وتحيتى ، وتجاهلتهما تماما .. فقلت لنفسى :

ـ انها لا تبدو لطيفة ودودة كما حاولت أن تقنعنى مسز دين !.. انها آية من آيات الجمال حقا ، ولكنها ليست ملاكا !

وطلب إليها ايرنشو فى جفاء ان تأخذ اشياءها إلى المطبخ ، فدفعتها بعيدا عنها وهى تجيبه فى سرعة : « خذها بنفسك ! » .. ثم قامت فذهبت إلى النافذة وجلست على مقعد صغير ، وراحت تحفر أشكالا لبعض الطيور والحيوانات فى قشور ثمار « اللفت » التى كانت فى حجرها .. فدنوت منها ، متظاهرا بالرغبة فى مشاهدة الحديقة ثم أسقطت رقعة مسز دين فوق ركبتها فى براعة وحذق ، كما خيل إلى وقتئذ ، فى غفلة من هيرتون .. ولكنها القت بها بعيدا وهى تسألنى بصوت مرتفع :

ـ ما هذه ؟

فساءنى أن كشفت بهذه الحماقة عن حسن صنيعى ، وخشيت ان يظن ان الرسالة منى ، فقلت :

ـ انه خطاب من رفيقة قديمة لكَ ، هى مدبرة المنزل فى « الجرانج » ..

وما أن سمعت ذلك حتى همت بالتقـاطه وقد غمـرها الفرح ، لولا ان هيرتون كان أسبق منها إليه ، فأخذه ووضعه فى جيب صدريته ، قائلا ان مستر هيثكليف يجب أن يراه أولا .. وعند ذلك أشاحت بوجهها عنا فى صمت ، ورأيتها تخرج منديلها خلسة وترفعه إلى عينيها .. أما ابن خالها فبعد أن راح يناضل مشاعره الرقيقة فى بادىء الأمر ، اخرج الخطـاب من جيبه وطوح به إلى الأرض بجوارها ، بقـدر ما وسعه من خشونة وفظاظة .. والتقطته كاثرين ومضت تطالعه فى لهفة وتشوق ، ثم أخذت تلقى على قليلا من الأسئلة المعقولة والتافهة عن سكان منزلها السابق .. وظلت لحظة تحدق بأنظـارها ناحية التلال ، وما لبثت أن غمغمت تناجى نفسها :

ـ ليتنى أستطيع ان أركب مهرى « مينى » هناك !.. وشد ما أتوق إلى تسلق الشجر هناك !.. أواه !.. اننى متعبة .. لقد تجمدت اطرافى يا هيرتون !

ثم أسندت رأسها الجميل إلى قاعدة النافذة وهى تخفى تنهدها بالتثاؤب ، ثم استغرقت فى شرودها الحزين ، غير مكترثة ، أو منتبهة ، ان كنا نراها ..

وبعـد أن جلست صـامتا بعض الوقت ، خاطبتهـا قائلا :

ـ ألا تدرين يا مسز هيثكليف أننى عرفتك من قبل ؟.. وأن أواصر المعرفة قد توثقت بيننا حتى لأجد من الغريب الا تأتى فتتحدثى إلى ؟.. ان مدبرة منزلى لا تكل عن الحديث

عنك وامتداحك لحظة واحدة ، ولسوف يسوؤها كثيرا أن أعود إليها صفر اليدين من أية أنباء عنك أو منك ، اللهم إلا انك تلقيت خطابها فلم تقولى شيئا !

فبدا عليها الاستغراب من حديثى ، وسألتنى :

ـ هل تحبك ايلين ؟

فاجبت مترددا .

ـ نعم .. كثيرا ..

ـ يجب ان تخبرها إذن اننى كنت أود الرد على خطابها لولا اننى لا أملك شيئا من وسائل الكتابة ، وليس عندى كتاب واحد استطيع ان انزع منه ورقة لأكتب عليها ..

فهتفت متعجبا :

ـ لا كتب عندك ؟.. وكيف بالله تطيقين العيش هنـا بدونها ، لو كان لى أن أسـأل هذا السؤال ؟.. اننى برغم ما لدى من مكتبة عظيمة ، ينتابنى السأم كثيرا فى « الجرانج » .. أما إذا حرمتنى كتبى ، فاننى يتملكنى اليأس المرير !

فقالت كاثرين :

ـ لقد كنت اقرأ فيها دائما ، عندما كانت عندى .. ولكن مستر هيثكليف لا يقرأ شيئا قط ، ولذلك وضع فى ذهنه ان يدمر كتبى جميعا .. وها قد مضت أسابيع برمتها لم تقع لى نظرة واحدة على كتاب .. ولكن حدث مرة أن رحت أنقب فى ذخيرة جوزيف من كتب الدين ، وركبه من ذلك هم عظيم .. كما حدث مرة ، يا هيرتون ، ان وقعت على مكتبة خفية

فى حجـرتك ، بعض الكتب اللاتينيـة واليونانية ، وبعض القصص وديوان شعر ، وكلها اصدقاء قدماء لى ، فأحضرت الأخير إلى هنا .. وقد كنت تجمعها ، كطائر العقعق الذى يجمع الملاعق الفضية لمجرد حبه للسرقة !.. فانها عديمة الجدوى لك .. أو لعلك كنت تخفيها بتلك الروح الخبيثة ، وهى انك ما دمت عاجزا عن الاستمتاع بها ، فلن يستمتع بها غيرك !.. وربما كان حسدك هذا هو الذى دفع مستر هيثكليف إلى حرمانى من ذخائرى ؟.. ولكن معظمهـا قد سطر فى ذهنى ، وطبع على صفحة قلبى ، ولن تستطيع ان تحرمنى من هذا أو ذاك !

فغدا وجه هيرتون ارجوانيا وهو يسمع ابنة عمته تفشى سره وتكشف عن مجموعته الخاصة من كتب الأدب ، وأخذ يتمتم متلعثما بألفاظ حانقة حاول بها أن ينكر اتهاماتها ، فتقدمت لنجدته ، قائلا :

ـ ان مستر هيرتون شديد الرغبة فى زيادة حصيلته من العلم والمعرفة .. وهو لم يكن يحسدك على ما بلغتـه من ثقافة ، وإنما كان يغبطك .. ولسوف يغدو طالبا نابهـا فى سنوات قليلة ..

فقالت كاثرين :

ـ وهو يريد منى أن اغرق فى لجة الجهل أثناء ذلك !.. نعم ، لقد سمعته يحاول الهجاء والمطالعة وحده ، وكم من أخطـاء عجيبة وقع فيها !.. ليتك تعيد قراءة « مطاردة

الصيد » كما كنت تفعل بالأمس !.. لقد كانت مهزلة وأى مهزلة !.. لقد سمعتك تقرؤها ، وسمعتك تبحث فى القاموس عن الكلمات الصعبة ثم تسب وتلعن لأنك لا تستطيع أن تقرأ شرحها !

ولا ريب أن الشاب كان يرأه أمرا بالغ السوء أن يسخر احد منه لجهله ، ثم يسخر منه بعد ذلك لمحاولته التخلص من هذا الجهل !.. وقد شعرت بمثل شعوره ، وتذكرت ما روته لى مسز دين عن محاولته الأولى فى إثارة ظلمة الجهل التى كان يعيش فيها حبيسا ، فقلت :

ـ ولكننا جميعا يا مسز هيثكليف بدأنا بمثل هذه البداية .. كلنا كنا نتعثر ونترنح على عتبة المعرفة .. ومع ذلك فلو كان مدرسونا قد سخروا منا بدلا من أن يساعدونا ، لازداد تعثرنا وترنحنا ، ولمـا بلغنا ما بلغناه ..

فأجابت :

ـ آه !.. اننى لا أريد ان أحد من تحصيله ، ولكنى لا ارى له حقا فى الاستيلاء على ما أملكه ، ثم يجعله يبدو سخيفا فى نظرى بأخطائه القبيحة وسوء نطقه الفظيع .. ان هـذه الكتب ، سواء أكانت نثرا ام شعرا ، تقترن فى ذهنى بذكريات اخرى .. وانى اكره أن يحط من قدرها ويدنسها عندما يلوكها فى فمه !.. وفضـلا عن ذلك كله فقد اختـار احب القطع إلى نفسى ، تلك التى احب ان ارددها أكثر من غيرها ، كأنما يصدر فى ذلك عن عمد ناشىء من خبث طويته ..

فأخذ صدر هيرتون يعلو ويهبط فى صمت لحظة طويلة .. كان يعتمل فى نفسه شعور قاس من الهوان والحنق معا ، لم يكن فى طاقته أن يكبحه .. فرأيت من حسن اللياقة أن أجنبه الحرج ، ومن ثمت نهضت ومضيت نحو الباب ووقفت فى مدخل الحجرة أقلب النظر فى المنظر الخارجى الممتد أمامى .. فاذا به يتبعنى ، ويغادر الحجرة .. وما لبث أن عاد بعد زمن يسير ، يحمل بين يديه عددا من الكتب والمجلدات القى بها فى حجر كاثرين وهو يصيح :

ـ خذيها !.. فما عدت اريد ان اسمع عنها او اقراها او افكر فيها بعد الآن !

ـ ولكنى لن آخذها .. سوف أقرن بينها وبينك ، فأبغضها !

ومع ذلك فقد تناولت أحدها ، وكانت تبدو عليه كثرة الاستعمال والتقليب ، وراحت تقرأ فيه بنغمة متعثرة كمبتدىء يتعلم الهجاء .. ثم انطلقت ضاحكة ، وطوحت بالكتاب وهى تستطرد ، فى إثارة واستفزاز ، قائلة : « اسمع هذه أيضا ! » .. ثم بدأت تلقى شعرا من ملحمة قديمة بالنغمة واللهجة نفسها !

عندئذ لم تعد مشاعره تحتمل المزيد من العذاب ، فسمعته ـ والحق اننى لم أستهجن ما فعله ـ يضع حدا لانطلاق لسانها الخبيث بحركة من يده !.. لقد فعلت الشقية كل ما فى وسعها لإيذاء مشاعر ابن خالها ، وهى مشاعر إن كانت

لم تلق نصيبها من التهذيب ، إلا انها كانت شديدة الحساسية .. فكان الرد البدنى هو الوسيلة الوحيدة التى يملكها لتصفية الحساب ، وسداد الدين للمعتدى !.. وبعد ذلك جمع الكتب وقذف بها فى وسط النيران .. وقد قرأت فى أساريره مبلغ ما يعانيه من الم إذ يقدم هذه الضحية على مذبح الحقد والغيظ !.. وخيل إلى ، بينما كانت النار تلتهمها ، انه يستعيد ذكرى ما وفرته له من سرور وانبساط ، ونشوة النصر والمتعة المتزايدة اللتين استمدهما من هذه الكتب .. بل لقد خيل إلى اننى أستطيع أن أحدس الباعث له على هذه الدراسات التى كان يقوم بها فى الخفاء !.. لقد كان قانعا بعمله اليومى ، ومتعه الحيوانية البدائية ، حتى عبرت كاثرين طريقه .. فكان خزيه من ازدرائها ، وأمله فى رضائها ، هما اللذان استحثاه فى بادىء الأمر على أن ينشد التقدم والارتقاء .. وبدلا من أن تحميه محاولاته نحو السمو بنفسه من الخزى ، أو تنيله الرضاء ، وجدها تنقلب إلى عكس النتيجة التى كان يرجوها ..

فصاحت كاثرين وهى تلعق شفتها الدامية ، وتنظر إلى الكتب المحترقة بعينين تفيضان حنقا وغيظا :

ـ نعم .. فهذا كل ما يستطيع جلف مثلك ان يجنيه من فائدة منها !

وعندئذ أجابها فى ضراوة :

ـ خير لك ان تمسكى لسانك الآن !

ثم غلب عليه الانفعال فمنعه من الاسترسال فى الكلام ،



واسرع نحو الباب ، فتنحيت قليلا حتى يستطيع المرور .. ولكن قبل أن يجتاز الدرجة الحجرية ، التقى به مستر هيثكليف وكان قادما من الممر ، فوضع يده فوق كتفه ، قائلا :

ـ ماذا تريد أن تفعل الآن يا بنى ؟

فأجاب هيرتون :

ـ لا شيء .. لا شيء !

ثم تملص منه ، وابتعد مسرعا لينشد فى الوحدة متنفسا عن حزنه وغضبه .. فأتبعه هيثكليف بأنظاره لحظة ، ثم تنهد وغمغم يقول لنفسه ، دون أن يشعر بوجودى خلفه :

ـ لو كذبت نفسى لكنت بالغ الشذوذ !.. ولكنى عندما ابحث عن شبه أبيه فى وجهه ، أجد ملامح عمته تزداد وضوحا يوما بعد يوم !.. كيف أصبح يشبهها إلى هذا الحد ، بحق الشيطان ؟.. اننى لا أكاد أحتمل أن أراه !

ثم غض من أنظاره ، ومضى إلى داخل الحجرة مهموما مكتئبا .. كانت ترتسم فى محياه لمحة من القلق والاضطراب لم الحظها عليه قط من قبل .. بل لقد بدا فى نظرى أشد نحولا وهزالا .. وكانت زوجة ابنه قد فرت هاربة إلى المطبخ ، على أثر رؤيته من خلال النافذة .. وهكذا بقيت فى الحجرة وحدى .

وتقدمت نحوه محييا ، فأجاب :

ـ يسرنى أن أراك قد شفيت وغادرت المنزل ثانية يا مستر لوكوود !.. وهو شعور ينبعث بعضه عن الأنانية !..

فلا أظننى قادرا الآن على تعويض خسارتنا فيك فى هذه البقعة الموحشة !.. ولقد تملكنى العجب أكثر من مرة فيما جاء بك إلى هنا ..

فكان جوابى : « أحسبها كانت نزوة خاسرة يا سيدى !.. أم لعلها نزوة خاسرة هى تلك التى تحتنى الآن على الرحيل .. فسوف ارحل إلى لندن ، فى الأسبوع القادم ، ولابد لى من أن انذرك بأننى لا احس ميلا أو استعدادا للاحتفاظ « بثرشكروس جرانج » بعد السنة التى اتفقت معك على استئجاره خلالها .. واعتقد أننى لن أقيم فيه بعد الآن ! » .

ـ حقا ؟.. أحسبك قد تعبت من هذا النفى عن العالم ، أليس كذلك ؟.. ولكن إذا كنت قد أتيت لتطلب اعفاءك من سداد إيجار مكان لا تنوى أن تشغله ، فان رحلتك إلى هنا لا طائل وراءها !.. فانى لا أتساهل البتة فى اقتضاء حقوقى من أى انسان !

فصحت به ، وقد أثارنى قوله كثيرا :

ـ اننى ما أتيت لأطلب شيئا من ذلك .. ولو اردت باقى الإيجار الآن ، فانى على أستعداد لسداده ..

ثم اخرجت دفتر الشيكات من جيبى ، ولكنه قال فى برود :

ـ كلا .. كلا .. فسوف تترك وراءك ما يكفى لسداد دينك ، إذا لم تحضر بنفسك لدفعه .. أما الآن فلست فى عجلة من الأمر !.. اجلس يا مستر لوكوود ، وتناول غداءك معنا ، فلا بأس من الترحيب بضيف يأمن المرء من تكرار زيارته !.. كاثرين !.. أعدى المائدة !.. أين أنت ؟

فظهرت كاثرين ثانيــة ، تحمــل مجمــوعة من الشــوك والسكاكين .. وعندئذ غمغم هيثكليف يقول لها على حدة :

ـ يمكنك أن تتناولى غداءك مع جوزيف ، وابقى فى المطبخ حتى ينصرف !

وأطاعت تعليماته فى دقة بالغة .. ولعلها لم تجد ما يغريها بمخالفته .. أو لعل معيشتها بين المهرجين وأعداء البشر قد جعلتها لا تستطيع أن تقدر من هم أرقى منهم عندما تلتقى بهم ..

وكان غداء كئيبا نوعا ما ، بين مستر هيثكليف فى عبوسه وتجهمــه ، وبين هيرتون فى صمته الأبكم . وما لبثت أن ودعتهما مستأذنا فى الانصراف مبكرا .. وكنت أود أن أخرج من باب المطبخ ، عسى أن القى نظــرة أخيرة على كاثرين ، وأغيظ جوزيف العجوز .. ولكن هيرتون كان قد تلقى الأمر باحضار جوادى أمام البــاب الرئيسى ، وشيعنى مضيفى بنفسه إلى البــاب ، وهكذا لم تسنح لى الفرصة لتحقيق رغبتى ..

وبينمــا كنت انطلق فى الطريق نحو منــزلى كنت اقول لنفسى :

ـ يا لها من حياة كئيبة تلك التى تمضى فى هذه الدار !.. وما كان أروعه من ادراك مسز لينتون هيثكليف لشىء أكثر شاعرية وخيالا مما فى القصص الخرافية ، لو أننى وهى عقدنا أواصر المحبة بيننا ، كما تمنت مربيتها الطيبة ، ثم ارتحلنا معا إلى جو المدينة المثير النابض بالحياة !

***

الفصل الثانى والثلاثون

سنة ١٨٠٢

دعيت فى شهر سبتمبر الحالى إلى ارتيــاد البرارى فى ضيعة صديق لى يقيم فى الشمال ، وكنت فى طريقى إليه عندما وجدت نفسى ، على غير انتظار ، على بعد خمسة عشر ميــلا من قرية « جيمرتون » .. وكان صاحب نزل ريفى على الطريق يحمل دلوا من المــاء لينعش به جيادى ، عندما مرت به عربة محملة بالشوفان الأخضر الحديث الحصاد ، فصاح به :

ـ هذه من جيمرتون ، ها ؟.. انهم دائما يتاخرون فى الحصاد ثلاثة أسابيع عن غيرهم من الناس !

وكانت ذكرى اقامتى فى تلك الناحية قد غشيتها غلالة رقيقة حالمة ، فانبعثت قائلا :

ـ جيمرتون ؟.. انني أعرفها .. كم تبعد عن هذا المكان ؟

فأجاب الفندقى :

ـ بيننا وبينها خمسة عشر ميلا ، وطريق شديد الوعورة !

فتملكتنى رغبة مفاجئة فى زيارة « ثرشكروس جرانج » .. وكان النهار يوشك أن ينتصف ، وقدرت أننى أستطيع قضاء الليلة تحت سقف منزلى ، كما كنت سأقضيها فى نزل ريفى صغير .. وفضلا عن ذلك ففى وسعى أن أستغنى عن يوم

بسهولة ، لأرتب أمورى مع صاحب المنزل ، وبذلك اوفر على نفسى مشقة الحضور إلى هذه الأنحاء مرة أخرى .. فانتظرت ريثما ارتحت قليلا ، وامرت خادمى بأن يستفسر عن الطريق إلى القرية ، وما لبثنا أن وصلنا إليها بعد ثلاث ساعات لقيت فيها دوابنا عناء عظيما ..

تركت خادمى فى القرية ، وتقدمت وحدى أهبط الوادى .. كانت الكنيسة القائمة تبدو أشد قتامة ، والمقبرة الموحشة تلوح أكثر وحشة .. ولمحت شاة من شياه البرارى ترعى الكلأ القصير فوق القبور .. كان الجو جميلا دافئا ، بل أشد دفئا مما يحتمله المسافر ، ولكن الحرارة لم تحل دون استمتاعى بالمناظر الساحرة فوقى وتحتى .. ولو كنت قد رأيتها قرب أغسطس لكان من المحقق أن يدفعنى الاغراء إلى قضاء شهر بين ربوعها المنعزلة الموحشة .. فما من شئ أشد فظاعة فى الشتاء ، وأشد سحرا وسموا فى الصيف ، من تلك الوهاد المحصورة بين التلال ، وتلك المرتفعات المتناثرة المغطاة بالعشب والكلأ ..

وبلغت « الجرانج » قبيل الغروب ، فطرقت الباب ، ولكن الخدم كانوا معتكفين فى الجزء الخلفى من المنزل ، كما أدركت من ذلك الشريط الأزرق الرفيع الذى كان يتلوى فى الفضاء منبعثا من مدخنة المطبخ ، فلم يسمعنى أحد ، ومضيت بجوادى نحو الفناء .. فرأيت تحت مظلة الباب بنتا فى التاسعة أو العاشرة من عمرها جالسة تحبك صوفا ، كما شهدت امراة عجوزا متكئة على درج الباب ، ومستغرقة فى تدخين غليونها .. فسألتها :

ـ هل مسز دين فى الداخل ؟

فأجابت :

ـ مسز دين ؟.. كلا .. انها لا تقيم هنا .. بل هناك فى « المرتفعات » ..

ـ وهل انت مدبرة المنزل إذن ؟

ـ نعم .. انا التى أرعاه الآن ..

ـ حسنا .. اننى مستر لوكوود ، السيد !.. ترى هل اجد اية حجرة لإيوائى ؟.. اننى أريد قضاء الليلة هنا ..

فصاحت فى دهشة ، وفى تلك اللهجة الريفية الغريبة :

ـ السيد ؟.. ماذا ؟.. من كان يعرف بمقدمك ؟.. كان يجب أن تبعث بكلمة .. فان المكان كله لا توجد به حجرة جافة أو مفروشة .. ولا واحدة !

ثم القت بغليونها ، واندفعت إلى الداخل ، والبنت فى اعقابها .. فتبعتهما وسرعان ما أدركت صدق ما قالته ، كما تبينت أننى كدت أخرجها عن صوابها بظهورى المفاجئ ، فطلبت إليها أن تهدأ قليلا وأخبرتها بأننى سوف أخرج للنزهة وعليها ان تحاول فى تلك الفترة اعداد ركن فى حجرة الجلوس لأتناول عشائى فيه ، وأن تعد لى حجرة انام فيها .. قلت لها اننى لا أريد أن تكنس المكان أو تمسحه ، فكل ما أحتاج إليه نار مشبوبة ، وفراش جاف نظيف .. وكان يبدو عليها أنها راغبة فى بذل غاية جهدها لإرضائى ، برغم أنها دفعت فرشاة الكنس فى الموقد خطأ بدلا من محراك النار ،



ولم أجد نفسى مضطرا الى تسلق البوابة ، أو الطرق عليها ، فما كدت أدفعها بيدى حتى استجابت لى ..

وأخطأت فى تناول أدوات عديدة أخرى مما تحتاجه فى مهمتها .. ولكنى انسحبت ، معتمدا على نشاطها فى أن أجد عند عودتى مقاما مريحا .. وكانت « مرتفعات ويذرنج » هدف نزهتى المزمعة ، ولكنى ما كدت أخلف الفنـاء ورائى ، حتى خطرت لى فكرة ، فعدت لأسألها :

ـ هل كلهم بخير فى « المرتفعات » ؟

فأجابتنى وهى تهرول حاملة دلوا مليئا بالفحم :

ـ نعم .. حسبما نعرف !

وكنت أود أن أسـألها عن سبب رحيل مسـز دين عن « الجرانج » ، ولكن كان من المحال أن أعوقها وهى فى غمرة تلك الأزمة التى تمر بها ، فاستدرت وتركت لها المكان ..

فلمـا غادرت حدود البستان ، وبدأت أرقى الطـريق الحجرى الجانبى المتفرع إلى منزل مستر هيثكليف ، مضيت أسير على مهل ، مع وهج الشمس الغـاربة خلفى ، وجلال قمر مشرق أمامى ، الأولى تسير نحو الأفول ، والثانى يبدأ فى التألق والسطوع .. وقبل ان يصبح المنزل على مرمى النظر منى ، كان كل ما بقى من النهـار ضياء كهرمانى خال من شعاع الشمس ، يمتد على طول الأفق الغربى .. ولكن كان فى وسعى أن أرى كل حصاة فى الممر ، وكل نصل من نصال العشب ، على ضوء ذلك القمر البهى .. ولم أجد نفسى مضطرا إلى تسلق البوابة ، أو الطرق عليها ، فما كدت أدفعها بيدى حتى استجابت لى .. فقلت فى نفسى ان هناك

تقدما باهرا !.. وما لبثت أن تبينت تقدما آخر اكتشفته خياشيمى ، فقد كان عبير الريحان والزهور المتسلقة يسبح فى الهواء منبعثا من بين أشجار الفاكهة فى الحديقة ..

وكانت الأبواب والنوافذ كلها مفتوحة .. ومع ذلك ، فكما هى الحـال عادة فى مناطق الفحم ، كانت تضىء المدفأة نار رائعة شديدة الوهج ، ان ارتاحت العين لمرآها فان حرارتها مما لا يطاق .. ولكن « مرتفعات ويذرنج » منزل ذو سعة ، يستطيع قاطنوه أن يجدوا فسحة من المكان ليبتعدوا عن لظاها .. وعلى ذلك فان الاثنين اللذين كانا بحجرة الجلوس وقتئذ ، اتخذا لنفسيهما مجلسا غير بعيد عن النافذة .. كنت أستطيع أن أراهما وأسمعهما يتكلمان ، قبل أن ادخل إليهما .. وهكذا تريثت قليلا ورحت أنظر اليهما مرة وأصغى لهما مرة أخرى ، وقد ثار فى نفسى شعور غريب امتزج فيه الفضول والغيرة معا !

سمعت صوتا رخيما كالأجراس الفضية ، يشدو قائلا :

ـ مضاد .. هذه هى المرة الثالثة التى أعلمك فيها كيف تنطق بالكلمة ، أيها الغبى !.. ولن أقولها لك مرة أخرى ، فانتبه جيدا وإلا جذبتك من شعرك !

فأجابها صوت آخر ، فى نبرات عميقة ذات عذوبة :

ـ مضاد ، إذن .. والآن قبلينى إذ أحسنت النطق !

ـ كلا .. اقرأ القطعة صحيحة أولا دون أن تأتى غلطة واحدة ..

فبدأ المتكلم الرجل يقرأ بصوت مسموع .. كان شابا فى مقتبل العمر ، يرتدى ثيابا أنيقة ، ويجلس إلى منضدة وامامه كتاب مفتوح .. وكانت أساريره الوسيمة تتألق بشرا وسرورا ، وعيناه لا تكفان عن الشرود ، فى صبر نافد ، من الكتاب إلى يد صغيرة بيضاء كانت موضوعة فوق كتفه ، ولا تفتأ تعيده إلى الوعى بلطمة رقيقة على وجنته كلما لاحظت صاحبتها شرود نظراته وعدم انتباهه !.. كانت صاحبة تلك اليد تقف خلفه ، وغدائرها الذهبية اللامعة تمتزج بين لحظة واخرى بخصلات شعره الأسمر ، كلما مالت فوقه لتشرف على دراسته .. اما وجهها .. آه !.. لقد كان سعيدا إذ كان لا يمكنه أن يرى وجهها فى جلسته هذه ، وإلا لمـا استطاع الثبات فوق مقعده كما يفعل الآن .. أما أنا فكنت أراه .. وكنت أعض على شفتى حانقا ، إذ أضعت الفرصة التى كان يمكن ان تتاح لى لو اننى قمت بعمل إيجابى بدلا من الاكتفاء بالتحديق فى جمالها الباسم ..

وانتهى الدرس ، دون أن يخلو من أخطاء أخرى .. ولكن التلميذ طالب بجائزته ، فتلقى خمس قبلات على الأقل ، ردها فى سخاء وحرارة !.. وما لبثا أن سارا نحو الباب ، وادركت من حديثهما انهما يوشكان على الخروج فى نزهة بين الأحراش والبرارى .. وبدا لى أن هيرتون ايرنشو سوف يدعو على من صميم قلبه ، ان لم يكن بلسانه ، بالتردى فى أعمق هوة من الجحيم ، لو اظهرت شخصى التعس بجواره وقتئذ !.. وشعرت بحقارتى وخبثى ، فأسرعت بالاختفاء وراء ركن المنزل ، ثم مضيت أبحث عن ملجأ لى فى المطبخ ..

وقد وجدت بابه مفتوحا هو الآخر ، وعند الباب جلست صديقتى القديمة نللى دين مشغولة بالحياكة وهى تسلى نفسها بالغناء .. ولكن أنشودتها كانت تقاطع من الداخل بألفاظ خشنة تنم عن الازدراء والتذمر ، فى نبرات ابعد ما تكون عن الأنغام الموسيقية !

كان شاغل المطبخ يقول ردا على حديث لنللى لم اسمعه :

ـ اننى لأفضل أن أسمع الشتائم تنصب فى أذنى من الصباح حتى المساء ، ولا اصغى لمجونك أيتها الشمطاء المتصابية !.. يا للعار !.. انه عار صارخ إذ لا أستطيع ان افتح الكتاب المقدس ، بينما ترفعين عقيرتك بتمجيد الشيطان والتفاخر بكل شرورك التى لم يولد مثلها على الأرض قط .. آه !.. انك أفعى خبيثة ، وتلك الفتاة أفعى خبيثة اخرى ، وهذا الغلام المسكين سوف يضيع بينكما !

ثم أردف يقول فى انين :

ـ يا للغلام المسكين !.. لقد قيدتاه بسحرهما .. اننى واثق من ذلك !.. آه .. يا الهى !.. اقض فيهما قضاءك الحق ، فلم يعد بين حكامنا قانون ولا عدالة !

فردت عليه المرأة قائلة :

ـ كلا .. وإلا لكنا الآن جالستين بين كتل الخشب المشتعلة !.. ولكن صه ايها العجوز المخرف ، واقرأ كتابك المقدس كأى شخص تقى ، ولا تلق بالك إلى .. اننى اترنم بلحن جميل هو أنشودة « عرس الحورية آنى » ، الذى يتحول إلى لحن راقص ..

وكانت مسز دين على وشك البدء من جديد ، عندما تقدمت نحوها .. وعرفتنى على الفور ، فوثبت قائمة ، وهى تهتف :

ـ لك الله يا مستر لوكوود !.. كيف خطر لك ان تعود بهذه الطريقة ؟.. ان كل شيء مغلق فى « ثرشكروس جرانج » ، وكان يجب عليك أن تنذرنا بمجيئك !

فأجبت :

ـ لقد رتبت الأمر لراحتى هناك ، طوال الفترة التى سأمكثها .. فسوف أرحل ثانية غدا .. ولكن خبرينى كيف انتقلت إلى هنا يا مسز دين ؟

ـ لقد تركت زيللا الخدمة ، فطلب إلى مستر هيثكليف الحضور ، على أثر رحيلك إلى لندن ، على أن أبقى هنا حتى تعود .. ولكن ارجوك أن تدخل أولا .. هل أتيت من « جيمرتون » هذا المساء ؟

ـ بل من « الجرانج » .. فقد أردت أن انهى عملى مع سيدك ، ريثما يعدون لى مكانا للمبيت هناك ، لأننى لا أحسبنى اجد فرصة اخرى لذلك فى القريب العاجل ..

وقادتنى نللى إلى حجرة الجلوس ، وهى تقول :

ـ أى عمل تريد انهاءه يا سيدى ؟.. لقد خرج الآن ، ولن يعود فى الحال ..

ـ مسألة الإيجار ..



ـ آه !.. إذن عليك أن تسوى الأمر مع مسز هيثكليف ، أو بالأحرى معى .. فانها لم تتعلم بعد كيف تدير شئونها ، وأنا التى أتولى ذلك نيابة عنها ، فليس ثمت من يقوم بذلك غيرى !

فبدت على الدهشة البالغة ، وعند ذلك أردفت تقول :

ـ آه !.. أرى أنك لم تسمع بموت هيثكليف !

فهتفت مشدوها :

ـ هل مات هيثكليف ؟.. منذ متى ؟

ـ منذ ثلاثة شهور .. ولكن اجلس أولا ، ودعنى أحمل قبعتك إلى المشجب ، وسوف أخبرك بكل شىء عن هذا الأمر .. ولكن مهلا .. انك لم تأكل شيئا ، أليس كذلك ؟

ـ لست أريد شيئا الآن ، فقد أمرت باعداد العشاء فى منزلى .. ولكن اجلسى أنت أيضا .. اننى ما تصورت وفاته قط !.. فدعينى أسمع كيف حدث ذلك .. لقد قلت انك لا تتوقعين عودتهما فى القريب ، فهل تعنين الفتى والفتاة ؟

ـ نعم .. واننى أضطر إلى تأنيبهما كل ليلة لجولاتهما المتأخرة ، ولكنهما لا يكترثان بى !.. ولكن خذ على الأقل قدحا من جعتك القديمة ، وسوف تفيدك لانك تبدو متعبا..

ثم أسرعت لتحضره قبل أن أستطيع الاعتذار عنه . وعندئذ سمعت جوزيف يسألها : « أليست فضيحة صارخة أن يكون لها عشاق وهى فى هذا الشطر من حياتها ؟.. ثم

لا تكتفى بذلك ، بل تقدم لهم الشراب من قبو السيد !.. انه لا يطيق عار البقاء ساكنا ليرى ذلك كله » ..

ولكنها لم تنتظر لترد عليه ، بل عادت بعد لحظة تحمل قدحا فضيا يحفه الحبب ، أثنيت على محتوياته الثناء الحميد فى شهية وحمية !.. وبعد ذلك زودتنى بالبقية الباقية من قصة هيثكليف .. فقد كانت نهايته « غريبة » على حد تعبيرها ..

***

قالت مسز دين :

استدعيت إلى « مرتفعات ويذرنج » بعد أسبوعين من رحيلك عنا ، فأطعت مسرورة من أجل كاثرين .. إلا أن أول حديث تبادلته معها ، أحزننى وأكربنى ، إذ وجدتها قد تغيرت كثيرا منذ فراقنا .. ولم يوضح لى مستر هيثكليف الأسباب التى حدت به إلى تغيير رأيه بشأن حضورى إلى هنا .. فلم يقل لى إلا أنه فى حاجة إلى ، وأنه تعب من رؤية كاثرين ، واننى يجب أن أتخذ من البهو الصغير حجرة لجلوسى ، وآخذها معى .. ويكفيه أن يضطر إلى رؤيتها مرة أو مرتين كل يوم .. وكانت تبدو مسرورة للنظام الجديد ، كما أننى من جانبى توليت تدريجيا تهريب عدد كبير من الكتب وغيرها من الأشياء التى كانت تتسلى بها فى « الجرانج » ، وأخذت أمنى النفس بالعيش فى راحة محتملة .. ولكن هذا الوهم لم يدم طويلا .. فبعد أن كانت كاثرين راضية ، ما لبثت بعد فترة قصيرة أن غدت سريعة الغضب شديدة

القلق لا يقر لها قرار .. فقد كانت اولا ، ممنوعة من الخروج من الحديقة ، فكانت شديدة السخط على نحو محزن ، من بقائها حبيسة فى حدودها الضيقة بينما الربيع يدنو حثيثا .. من ناحية أخرى ، فان انشغالى بمهامى المنزلية ، كان كثيرا ما يرغمنى على تركها ، فكانت تشكو ما تعانيه من الوحدة .. كانت تفضل الشجار مع جوزيف فى المطبخ ، على بقائها فى عزلتها الهادئة !.. وكنت لا اعبأ بمناوشاتهما ، ولكن هيرتون كان كثيرا ما يضطر إلى الالتجاء إلى المطبخ أيضا ، عندما يريد السيد أن ينفرد بنفسه فى حجرة الجلوس .. ومع انها كانت ، فى بادىء الأمر ، اما أن تترك المطبخ عند اقترابه ، او تساعدنى فى مشاغلى فى هدوء ، متجاهلة رؤيته ومتجنبة مخاطبته ــ ومع انه كان دائما شديد العبوس والصمت بقدر ما يسعه ــ فانها لم تلبث ، بعد فترة من الزمن ، أن غيرت مسلكها وأصبحت تعجز عن أن تتركه وشأنه .. فكانت تتحدث عنه ، وتعلق على غبائه وكسله ، وتفضى بدهشتها وعجبها من احتماله تلك الحياة التى يحياها ، وكيف يستطيع الجلوس أمسية طويلة يحملق فى نار المدفأة ويهوم من النعاس !.. وقد قالت مرة :

ــ انه أشبه بالكلب ، أليس كذلك يا ايلين ؟.. أو بحصان عربة الخضر ؟.. انه يقوم بعمله ، ويأكل طعامه ، وينام نوما طويلا !.. لابد ان يكون عقله خاويا موحشا !.. هل تحلم قط يا هيرتون ؟.. وإذا كنت تحلم فى نومك ، فعن أى شىء يجرى حلمك ؟.. آه !.. ولكنك لا تستطيع ان تخاطبنى !

ثم نظرت إليه ، ولكنه لم يفتح فمه أو ينظر ثانية .. فاستطردت تقول :

ــ ربما كان يحلم الآن !.. فقد تقوست كتفه فجأة ، كما تفعل كلبتنا « جونو » !.. اسأليه يا ايلين !

فقلت :

ــ ان مستر هيرتون سوف يسأل السيد أن يبعث بك إلى حجرتك فورا إذا لم تحسنى الأدب !

فاننى لم اره يقوس كتفه فقط ، بل رأيته يشد قبضة يده ، كأنه يجد به ميلا إلى استخدامها !

وفى مناسبة اخرى صاحت تقول :

ــ اننى أعرف لماذا لا يتكلم هيرتون قط عندما أكون فى المطبخ .. انه يخشى أن اضحك عليه !.. ما رأيك يا إيلين ؟ لقد حدث مرة أن بدأ يعلم نفسه القراءة ، ولأننى ضحكت منه ، أحرق الكتب وتخلى عن مشروعه .. ألم يكن أحمق فى ذلك ؟

فقلت لها :

ــ أو لم تكونى أنت شقية شريرة ؟.. أجيبى على سؤالى هذا !

ــ ربما كنت كذلك .. ولكنى لم أتوقع أن يكون على هذا الغباء .. اسمع يا هيرتون ، لو أعطيتك كتابا الآن ، فهل تأخذه ؟.. سوف أحاول ..

ثم تناولت كتابا كانت تطالع فيه فوضعته فوق يده ، ولكنه قذف به بعيدا وغمغم يقول انها إذا لم تتخل عن عبثها فسوف يدق عنقها !

ولكنها قالت :

ـ حسنا .. سوف أضعه هنا ، فى درج المائدة .. اما انا فسأذهب لانام ..

ثم همست تطلب منى أن ارقبه لأرى إن كان يقرب الكتاب ، وغادرت الحجرة .. ولكنه لم يرض أن يدنو منه ، فلما أنبأتها بذلك فى الصباح ، انتابها كرب عظيم .. ورأيت أنها حزينة لإصراره على عبوسه وكسله .. كان ضميرها يؤنبها إذ جعلته يفزع من مجرد التفكير فى اصلاح أمره ، وكان لفعالها الحمقاء أثرها الحاسم فى ذلك .. ولكن ذكاءها كان يعمل ويكد فى علاج ما أفسدته .. كنت كلما اشتغلت بكى الثياب ، أو تابعت غيره من المهام المنزلية التى لا تحتاج للمشى والتنقل ، والتى لا يمكننى القيام بها فى البهو ، رأيتها تعمد إلى كتاب من كتبها البهيجة ، وتروح تقرأ لى فيه بصوت عال .. وكانت ، عندما يكون هيرتون هناك ، تقف عادة عند جزء مشوق من الكتاب ، ثم تتركه موضوعا فوق المنضدة او غيرها .. فعلت ذلك وكررته مرارا ، ولكنه كان أشد عنادا من البغل ، وبدلا من أن يلتقط الطعم الذى القته له ، كان فى الليالى المطرة ينصرف إلى التدخين مع جوزيف ، فيجلس كل منهما إلى احد جانبى المدفاة ، اشبه بالإنسان الآلى !.. وكان الأكبر سعيدا بصممه الذى يجعله لا يفهم شيئا من

الهراء الشنيع الذى تقوله كاثرين ، كما كان يطيب له أن يسمى مطالعتها وحديثها ، بينما كان الأصغر يبذل قصارى جهده فى التظاهر بعدم الاكتراث .. اما فى الليالى الصحو ، الجميلة فكان هيرتون يخرج إلى الصيد ، وتظل كاثرين تتنهد وتتثاءب وتلح على فى أن أتحدث إليها ، ثم تنطلق إلى صحن الدار أو الحديقة ، فى اللحظة التى اهم فيها بالكلام .. وكان آخر ما لجأت إليه ، أن راحت تبكى وتقول إنها سئمت العيش ، وان حياتها هباء فى هباء ..

وكان مستر هيثكليف يزداد يوما بعد يوم عزوفا عن معاشرة احد ، حتى أبعد هيرتون نهائيا عن حجرة الجلوس .. وعلى أثر حادث أصابه فى بداية مارس ، أصبح الفتى قطعة ثابتة فى المطبخ ، لأيام عديدة .. كانت بندقيته قد انفجرت بينما كان يجوب التلال وحده ، فمزقت شظية منها ذراعه وفقد قدرا عظيما من دمائه قبل أن يستطيع الوصول إلى المنزل .. وكانت نتيجة ذلك أن قضى عليه ، برغم أنفه ، بأن يخلد إلى الهدوء والسكون ، بجوار المدفاة ، حتى استعاد قواه .. وكان مما يوافق كاثرين ويرضيها أن تجده دائما هناك ، حتى لقد ازدادت كراهية لحجرتها فى الطابق العلوى أكثر منها فى اى وقت مضى ، وكانت ترغمنى على أن اجد عملا فى المطبخ ، حتى ترافقنى إليه ..

وفى يوم الاثنين ـ الموافق لعيد الفصح ـ ذهب جوزيف إلى سوق (جيمرتون) ببعض الماشية .. وكنت مشغولة فى المساء بترتيب بعض المفارش فى المطبخ ، وقد جلس إيرنشو

واجما مهموما كعادته ، فى ركن المدفاة ، بينما مضت سيدتى الصغيرة تتلهى برسم الصور على زجاج النافذة ، أو تستبدل ملهاتها هـذه بالغناء الخافت ، او الصيحات الهامسة ، وباستراق النظر فى سخط وتبرم نحو ابن خالها الذى كان منصرفا إلى التدخين فى ثبـات ، وهو لا يحول أنظـاره عن الموقد !

فلما ابديت لها أننى لا استطيع أن أسمح لها بالاستمرار فى الوقوف أمام النـافذة وحجب الضوء عنى ، انتقلت إلى جوار المدفاة .. ولم أكن ألقى بالا إلى أفعالها قبل ذلك ، ولكنى سمعتها وقتئذ تبدأ قائلة :

ـ لقد تبينت يا هيرتون أننى أريد .. انه يسرنى .. أننى اود كثيرا ان تكون ابن خالى الآن ، لولا انـك غدوت دائم التجهم لى والخشونة معى ..

فلم يجبها هيرتون بكلمة ، فاستطردت تقول فى الحاح :

ـ هيرتون .. هيرتون .. هيرتون .. هل تسمعنى ؟

فزمجر فى فظاظة لا تبشر بالخير :

ـ اغربى عن وجهى !

فقربت يدها فى حذر وجذبت الغليون من فمـه ، وهى تقـول :

ـ دعنى آخذ هذا الغليون ..

وقبل أن يتسع له الوقت ليحاول استعادته ، كان الغليون قد تحطم والقى به وسط النيران المتأججة .. فانطلق يسب ويلعن ، ثم أخرج غليونا آخر ، فصاحت :

ـ انتظر !.. يجب أن تصغى إلى اولا ، ولن أستطيع الكلام وهذه السحب من الدخان تطفو فى وجهى !

فصرخ فى وجهها ، فى ضراوة وشراسة :

ـ هل لك ان تذهبى إلى الشيطان ، وتدعينى وشأنى ؟

ولكنها مضت فى إلحاحها ، فقالت :

ـ كلا .. لن اذهب إلى الشيطان ، ولن أدعك وشانك .. اننى لا أدرى ما الذى يمكن ان أفعله لأجعلك تتحدث معى .. فانت قد عقدت العزم على الا تفهمنى .. اننى عنـدما انعتك بالبلاهة ، فلست أعنى شيئا البتة .. لست اعنى اننى أحتقرك وازدريك .. فهدىء من روعك ، وأولنى شيئا من الاهتمـام يا هيرتون !.. انكَ ابن خـالى ، ويجب أن تعترف بوجودى ..

ـ بل لن يكون لى شـأن بك ، ولا بكبريائك الدنيئـة ، وأفاعيلك الهازئة اللعينة !.. انه لأولى لى أن أذهب إلى الجحيم ، روحا وجسدا ، قبل أن اتبعك بنظرة جانبية مرة أخرى !.. اغربى عن وجهى الآن .. حالا !

فعبست كاثرين ، وانسحبت إلى مقعد النافذة وهى تعض على شفتها ، وتترنم بنغمة غريبة تحاول أن تخفى وراءها رغبة متزايدة نحو البكاء ..

فتدخلت بينهما قائلة :

ـ يجب أن تكون صديقا لابنة عمتك يا مستر هيرتون ، ما دامت قد ندمت على شقاوتها معك .. انك سوف تلقى

من صداقتها خيرا عظيما .. سوف تصبح رجلا آخر لو اتخذتها لك رفيقا ..

فصاح :

ـ رفيقا ؟.. بينما هى تمقتنى ولا ترانى أهلا لأن أمسح حذاءها ؟.. كلا .. كلا .. لن أرضى بالازدراء فى سبيل كسب رضاها ، ولو جعلتنى صحبتها ملكا متوجا !

فلم تقو كاثرين على اخفاء حزنها ، وانبعثت تبكى وهى تقول :

ـ لست انا التى اكرهك ، بل انت الذى تكرهنى !.. انك تمقتنى مثلما يمقتنى مستر هيثكليف ، بل أكثر !

ـ أنت كاذبة لعينة !.. لماذا ، إذن ، كان يثور ضدى غاضبا ، أكثر من مائة مرة ، عندما كنت أنحاز لك وأدافع عنك ؟.. وذلك بينما كنت تسخرين منى وتحتقريننى و .. عودى إلى مضايقتك لى ، وسوف أذهب إليه وأقول انك ازعجتنى حتى اخرجتنى من المطبخ !

فقالت كاثرين وهى تجفف عينيها :

ـ لم اكن اعرف انك دافعت عنى .. ثم اننى كنت تعسة شقية اشعر بالمرارة من الناس جميعا .. ولكنى الآن اشكرك ، وارجو أن تصفح عنى .. فما الذى يمكن أن أصنعه غير ذلك ؟

ثم عادت إلى المدفأة ، ومدت إليه يدها فى اخلاص .. اما هو فقد احتقن وجهه ، وازداد تجهما ، حتى أصبح

كسحابة رعدية توشك أن تنفجر ، وظل يشدد الضغط على قبضتيه وقد تعلقت أنظاره بالأرض .. ولابد أن تكون كاثرين قد تبينت ، بغريزتها ، أن ما دفعه إلى هذا المسلك الفظ لا يعدو أن يكون صلابة فى الاعتزاز بالنفس والعناد ، لا كرها ولا بغضا .. لأنها بعد أن لبثت مترددة برهة ، انحنت فوقه وطبعت على وجنته قبلة رقيقة !.. وكأنما حسبت الخبيثة الصغيرة أننى لم أرها ، إذ عادت إلى مكانها السابق بجوار النافذة ، فى رصانة وبراءة !.. ولكنى هززت رأسى مؤنبة ، فتورد وجهها وهمست تقول لى :

ـ حسنا .. ماذا كان ينبغى أن أفعل يا ايلين ؟.. لقد رفض أن يصافحنى ، ورفض أن ينظر إلى ، وكان لابد لى من أن أريه ، بطريقة ما ، أننى أميل إليه ، وأننى أريد أن نكون صديقين !

ولست أدرى إن كانت القبلة قد أقنعت هيرتون أخيرا !.. ولكنه حرص على اخفاء وجهه ، لحظة طويلة ، حتى لا يراه أحد !.. فلما رفعه ، كان يبدو فى حيرة يرثى لها ، لا يدرى إلى أين يوجه أنظاره !

وانشغلت كاثرين فى تغليف كتاب أنيق بورق أبيض نظيف .. وبعد أن ربطته بقطعة من الشريط ، وكتبت عليه « إلى مستر هيرتون ايرنشو » ، رغبت إلى فى أن أكون سفيرة لها ، وأن أحمل الهدية إلى المرسلة إليه .. وقالت :

ـ وتخبريه يا ايلين ، انه إذا قبله فسوف أحضر وأعلمه

كيف يقرؤه قراءة صحيحة .. أما إذا رفض قبوله ، فسوف أصعد إلى حجرتى ولن أضايقه بعد ذلك قط !

فحملت الكتاب ، وأعدت الرسالة على مسامعه ، بينما كانت مخدومتى ترقبنى فى لهفة وقلق .. إلا ان هيرتون لم يفتح أصابعه المنقبضة ، ولذلك وضعت الكتاب فوق ركبته .. ولكنه لم يقذف به ارضا كذلك !.. فعدت إلى عملى ، بينما توسدت كاثرين ذراعيها فوق المائدة ، حتى سمعت حفيف ورق الغلاف وهو ينزع فى رفق ، وعندئذ تسللت إلى حيث كان ابن خالها ، فجلست إلى جانبه فى هدوء .. فرأيته يرتعد ، ووجهه يضطرم نارا ، وقد فارقته خشونته وفظاظته إلى غير رجعة .. ولكنه لم يستطع ، فى بادىء الأمر ، أن يستجمع شجاعته ، وينطق بحرف واحد ردا على نظراتها المتسائلة ، وغمغمتها المتوسلة ، وهى تقول له :

ـ قل انك صفحت عنى يا هيرتون .. قلها !.. انك تضفى على سعادة بالغة لو قلت هذه الكلمة الصغيرة ..

فانبعثت منه تمتمة غير مفهومة .. ومضت كاثرين تضيف فى تساؤل :

ـ وهل ستصبح صديقى ؟

ـ كلا .. فسوف تخجلين منى كل يوم من أيام حياتك ، وكلما ازداد شعورك بالخجل والعار ، ازددت معرفة بى ، وهذا أمر لا أطيق احتماله ..

فعلت وجهها ابتسامة أحلى من العسل ، وزحفت إلى جانبه ملتصقة به وهى تقول :

ـ إذن فلن تكون صديقى ؟

ولم اعد اسمع كلاما مفهوما بعد ذلك !.. فلما تلفت ناحيتهما ثانية ، رايت وجهين منحنيين معا فوق إحدى صفحات الهدية المقبولة ، يشع منهما الضياء والبهاء بحيث لم يعد لدى شك فى أن المعاهدة قد ابرمت بين الطرفين ، وان العدوين قد انقلبا حليفين متحابين !

كان الكتاب الذى يدرسانه مليئا بالصور الثمينة .. وكانت هذه وجلستهما معا قد سحرتهما بحيث ظلا بلا حراك حتى عاد جوزيف إلى المنزل .. يا للرجل المسكين !.. لقد وقف ذاهلا مشدوها ، وهو يرى كاثرين تجلس على أريكة واحدة مع هيرتون ايرنشو ، وتسند يدها إلى كتفه !.. كان حائرا كيف يطيق فتاه المدلل الاقتراب منها إلى هذا الحد !؟ .. وكان أثر ذلك كله فى نفسه من العمق بحيث لم يبد أى تعليق ليلتئذ .. وإنما وجد شعوره متنفسا فى تلك التنهدات العميقة التى راح يطلقها وهو ينشر كتابه المقدس الكبير فوق المائدة ، ويضع فوقه اوراقا مالية قذرة كان يخرجها من حافظته ، وهى ثمرة الصفقات التى قام بها يومئذ .. واخيرا نادى إليه هيرتون ، قائلا :

ـ خذ هذه إلى السيد ، يا غلام ، وابق معه هناك .. انني سوف اصعد إلى حجرتى !.. وهذا الجحر لم يعد صالحا او لائقا بنا ، ولابد لنا من أن نهجره ونبحث عن مكان غيره !

فقلت :

ـ تعالى يا كاثرين .. فلابد لنا من ان « نهجره » نحن كذلك .. لقد انتهيت من الكى ، فهل انت على استعداد للانصراف ؟

فنهضت على كره وهى تقول :

ـ الساعة لم تبلغ الثامنة بعد !.. سوف اترك هذا الكتاب فوق رف المدفأة يا هيرتون ، وسأحضر غيره فى الصباح ..

فقال جوزيف :

ـ اى كتاب تتركينه هنا سوف آخذه إلى حجرة الجلوس ، وستكون معجزة لو وجدته ثانية .. فافعلى ما يحلو لك إذن !

فأنذرته كاثرين بأن مكتبته سوف تدفع الثمن غاليا إذا ما فقد شىء من كتبها ، ثم انطلقت ترقى الدرج مترنمة بلحن جميل ، بعد أن منحت هيرتون ابتسامة وضاءة وهى تمر به ..

ونمت الألفة التى نشأت بينهما على هذا النحو ، نموا سريعا ، وان صادفتها لحظات من الفتور الوقتى .. فلم يكن ايرنشو لينال الثقافة والتهذيب بكلمة او رغبة .. كما ان سيدتى الصغيرة لم تكن فيلسوفة ، او مثال الصبر والحلم !..

ولكن تفكيرهما كان يتجه إلى هدف واحد : فأحدهما يحب ، ويود ان يضفى تقديره على من يحب ، والثانى يحب ويشتهى أن يكون موضع تقدير محبوبه ـ فتكاتفا فى النهاية على بلوغه ..

وهكذا ترى يا مستر لوكوود ان استمالة قلب كاثرين كانت امرا ميسورا .. ولكنى مسرورة الآن لانك لم تحاول ذلك .. ان اقصى آمالى ان ارى هذين الاثنين زوجين .. ولن احسد احدا ليلة زفافهما ، فلن تكون فى انجلترا كلها امرأة أعظم سعادة منى !

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

كان ايرنشو ـ غداة ذلك اليوم ـ لا يزال غير قادر على متابعة اعماله العادية ، ومن ثمت كان باقيا فى المنزل ولن يبرحه .. وسرعان ما تبينت ان حجز وديعتى بجانبى ، كما كنت أفعل فيما مضى ، سوف يكون امرا غير عملى ، فقد نزلت قبلى ، واسرعت إلى الحديقة حيث كانت قد رات ابن خالها يؤدى عملا بسيطا هناك .. فلما ذهبت لأطلب إليهما الدخول لتناول طعام الافطار ، وجدت انها قد اغرته بتنظيف قطعة كبيرة من الأرض من اشجار العنب البناتى وعنب الديب ، وكانا وقتئذ منهمكين معا فى غرس بعض النباتات التى استجلبت شتلاتها من « الجرانج » ..

وتملكنى الفزع من ذلك الدمار الذى اصاب الحديقة فى نصف ساعة ، لا اكثر .. فقد كانت اشجار العنب البناتى الأسود قرة عين جوزيف ، فاذا كاثرين تركز اختيارها لحوض الزهور التى غرستها ، وسط هذه الأشجار ..

فصحت مرتاعة :

ـ ويلاه !.. سوف ياخذ جوزيف السيد ليرى هذا ، عندما يكتشفه !.. ثم اى عذر يمكنكما ان تبدياه لإطلاق ايديكما فى الحديقة بمثل هذه الجراة ؟.. سوف نرى انفجارا رائعا بسبب ذلك ، وستريان بنفسيكما !.. واننى لأعجب يا مستر هيرتون ، كيف لم تبق لديك ذرة من العقل حتى تقوم بهذا الانقلاب بناء على طلبها !

فأجاب ايرنشو وقد بدا حائرا :

ـ لقد نسيت انها أشجار جوزيف ، ولكننى ساخبره باننى الذى اقتلعتها ..

وكنا نتناول طعامنا دائما برفقة مستر هيثكليف .. فكنت اقوم بدور سيدة الدار ، فى تقديم الشاى وتوزيع الطعام ، ولذلك كان وجودى على المائدة ضروريا ، لا غنى عنه .. وكانت كاثرين عادة تجلس إلى جانبى ، ولكنها يومئذ تسللت قريبا من هيرتون ، وما لبثت ان رايتها لا تتستر فى إظهار صداقتها اكثر منها فى إظهار العداء !

وكنت قد همست لها ، اثناء دخولنا الحجرة معا :

ـ ارجو الا تكثرى من الحديث واللفتات مع ابن خالك ، فان ذلك سوف يغضب مستر هيثكليف حتما ، ويجعله يثور فى وجهيكما معا ..

فأجابتنى : « لن افعل شيئا من ذلك ! » .

ولكنها ، فى اللحظة التالية ، كانت تلتصق به ، وبدات تعابثه وتلقى بزهور الأقحوان فى طبق الثريد أمامه ..

ولم يجرؤ وقتئذ على أن يخاطبها بكلمة .. بل كاد لا يجرؤ على النظر إليها .. ومع ذلك ظلت ممعنة فى عبثها حتى كادت تستثير الضحك منه مرة أو اثنتين .. فعبست فى وجهها ، وعندئذ القت على السيد نظرة سريعة لترى إن كان يلحظها .. ولكنه كان مشغول الفكر باشياء اخرى غير رفقاء الطعام ، كما بدا جليا فى محياه .. فلزمت كاثرين الرصانة لحظة ،



ولكنها ، فى اللحظة التالية ، كانت تلتصق به ، وبدأت تعابثه وتلقى بزهور الأقحوان فى طبق الثريد أمامه ..

وهى تتفرس فيه بنظرات ثاقبة ، وهيبة عميقة .. وما لبثت ان عادت إلى مجونها .. واخيرا أفلتت من هيرتون ضحكة مكتومة .. فأجفل مستر هيثكليف بغتة ، وراح يتصفح وجوهنا بنظرة سريعة .. وقابلت كاثرين نظراته بنظرتها العادية المليئة بالسخط ، بل بالتحدى ، التى كان يكرهها منها .. فصاح بها :

– من حسن حظك انك بعيدة عن متناول يدى .. اى شيطان يتملكك حتى تحملقى فى وجهى دائما بهاتين العينين الجهنميتين ؟.. اخفضى عينيك !.. وإياك أن تذكرينى بوجودك مرة اخرى .. لقد ظننتك برئت من الضحك !

فغمغم هيرتون :

– لقد كنت أنا ..

فسأله السيد :

ماذا تقول ؟

فارخى هيرتون أنظاره إلى طعامه ، ولم يكرر اعترافه ثانية .. فظل مستر هيثكليف يرمقه بأنظاره لحظة ، ثم عاد إلى متابعة افطاره صامتا ، وإلى استئناف الامعان فى التفكير ، بعد ان قطعته هذه الواقعة .. وكنا قد أوشكنا على الفراغ من الطعام ، وقد تعقل الفتى والفتاة فجلسا هادئين متباعدين ، حتى توقعت ان هذه الجلسة لن تشوبها شائبة بعد ذلك ، عندما ظهر جوزيف فى الباب ، وقد بدا فى شفته المرتعشة ، وعينيه الثائرتين ، ان العدوان الذى وقع على خمائله الثمينة

قد كشف امره .. ولابد انـه قد راى كاثى وابن خالهـا واقفين عند تلك البقعة قبل ان يذهب لفحصها ، لانه كان يتكلم وفكاه يصطكان كفكى بقرة تجتر طعامهـا ، فيجعلان من العسير فهم ما يقوله عندما بدأ :

ـ يجب ان آخذ أجرى ، ويجب ان ارحل من هنا !.. لقد كنت أود ان أموت فى المكان الذى خدمته ستين عاما ، وظننت ان بوسعى ان آخـذ كتبى وكل ما لدى من اشياء اخرى ، إلى العلية الصغيرة ، فاترك لهما المطبخ يمرحان فيه كما يريدان ، وانشد الهدوء والسكينة فى مكان آخر .. كان من العسير أن أتخلى عن مدفأتى وجلستى بجانبها ، ولكنى ظننت اننى استطيع أن افعل ذلك .. أما الآن فقـد اخذت منى حديقتى ، وهذا شىء لا استطيع أن احتمله أيها السيد .. اننى أقولها لك من كل قلبى .. انك قد تحنى راسك تحت النير ، اما انا فلست معتادا عليه ، ورجل عجوز مثلى لا يعتاد سريعا على النظم الحديثة !.. انى افضل ان اكسب لقمتى وحسائى من فأس ومطرقة اشتغل بهما على قارعة الطريق !

فقاطعه هيثكليف قائلا :

ـ مهلا .. مهلا ايها الغبى !.. اوقف هذا الطوفان حالا ! .. ما الذى يثير شـجونك ؟.. ولكنى لن اتدخل فى أى شجار بينك وبين نللى ، فلو قذفت بك إلى داخل الموقد لمـا اكترثت !

ـ انها ليست نللى !.. فما كنت لأشكو من نللى ، ولو انها اصبحت الآن خبيثة هى الأخرى .. شكرا لله !.. فهى لا ترضى بأن تسلب أحدا روحه !.. فلم تكن قط رقيقـة الشعور مثلما هى الآن ، ولكن ماذا تستطيع ان تفعل وسط الشرور التى تحيط بهـا !.. انهـا « ملكتك » الخسيسة الشريرة التى سحرت فتانا بعينيها الجريئتين ، ووسائلها الدنيئة ، حتى جعلته .. لا .. ان قلبى يتمزق !.. جعلته ينسى كل ما فعلته له ، وما صنعته به ، فيذهب ليزيل أكبر اشجار العنب البناتى فى الحديقة !

ثم انخرط فى البكاء كالنساء ، وقد غلبه احساسه بمرارة الاهانة التى لحقته ، وجحود ايرنشو والحالة الخطيرة التى بلغهـا !

فقال مستر هيثكليف :

ـ هل ذلك الابله ثمل ؟.. اهو انت الذى يشـكو منه يا هيرتون ؟

فاجاب الفتى :

ـ لقد نزعت شجرتين او ثلاثا ، ولكنى سوف اعيدهما ثانية ..

فساله السيد :

ـ ولمـاذا نزعتها ؟

عنـدئذ رات كاترين من الحكمة أن تمـد لسانها !.. فصاحت :

ـ لقد اردنا ان نزرع بعض الزهور هناك .. وأنا المسئولة الوحيدة عن ذلك ، لأننى طلبت إليه أن يفعله ..

فقال حموها فى دهشة بالغة :

ـ من الذى اذنك ، بحق الشيطان ، أن تمسى شيئا فى هذا المكان ؟

ثم تحول إلى هيرتون ، واردف :

ـ ومن الذى امرك بأن تطيعها ؟

فلم ينبس الأخير بكلمة ، وتولت ابنة عمته الإجابة فقالت :

ـ ما ينبغى لك ان تحقد علينا من أجل بضع ياردات من الأرض أجد فيها زينة لى ، بعد ان استوليت على كل ارضى !

ـ أرضك ؟.. متى كانت لك أرض أيتها الحقيرة الوقحة ؟

فاستطردت تقول وهى تقابل نظراته النارية فى ثبات وتقضم قطعة من الكعك بقيت من افطارها : « ونقودى ! »

فصاح بها :

ـ اخرسى !.. اذهبى من هنا ..

فتابعت التعسة الطائشة كلامها :

ـ وارض هيرتون وماله !.. لقد اصبحت وهيرتون صديقين ، وسوف اخبره بكل شىء عنك !

وجمد السيد فى مكانه مشدوها لحظة ، وقد امتقع وجهه ، وما لبث أن نهض من مكانه ، دون ان يرخى انظاره عنها طيلة

هذا الوقت ، وبدت فى وجهه لمحة من الحقد المميت .. ولكنها عاجلته قائلة :

ـ إذا ضربتنى ، فسوف يضربك هيرتون !.. وخير لك أن تعود إلى مجلسك إذن !..

فانفجر هيثكليف كالرعد القاصف :

ـ إذا لم يخرجك هيرتون من الحجرة الآن فسوف اضربه حتى اقضى عليه .. انت أيتها الساحرة اللعينة !.. اتجرؤين على التفاخر باثارته ضدى ؟.. اخرجها من هنا .. الا تسمع ؟.. القها فى المطبخ !.. اننى سوف اقتلها ، يا ايلين دين ، إذا تركتها تقع تحت نظرى ثانية !

فحاول هيرتون اقناعها بالخروج همسا ، ولكن هيثكليف صاح به فى وحشية :

ـ جرها إلى الخارج !.. اسحبها على الأرض !.. هل انت واقف لتكلمها ؟

ثم دنا منها لينفذ أمره بنفسه .. فقالت كاثرين :

ـ انه لن يطيعك بعد الآن ، أيها الرجل الشرير !.. وسوف يمقتك عاجلا مثلما امقتك !

ففمغم الشاب مؤنبا :

ـ صه !.. صه !.. إننى لا اقبل ان اسمعك تخاطبينه على هذا النحو !.. هيا بنا ..

فصاحت به : ولكنك لن تدعه يضربنى ؟

فهمس لها فى لهفة : « تعالى إذن ! »

ولكن فات الأوان .. فقد امسك بها هيثكليف ، ثم قال لايرنشو :

ـ والآن ، اخرج انت !.. فهـذه الساحرة اللعينة قد اثارتنى هذه المرة وانا لا احتمل الإثارة ، وسوف أجعلها تندم على ذلك طيلة حياتها ..

وكان قد دس يده فى شعرها وقبض على ناصيتها . فحاول هيرتون ان يخلص غدائرها من قبضته ، وهو يتوسل إليه الا يؤذيها هذه المرة .. وكانت عينا هيثكليف السوداوان تومضان شررا ، وقد بدا عليه انه يهم بتمزيق كاثرين اربا .. واشتد بى الانفعال والهلع حتى عزمت على المخاطرة بانقاذها ، عندما رايت أصابعه تلين فجـأة ، ورايته ينقل قبضته من راسها إلى ذراعها ، وهو يحدق فى وجهها فى امعان غريب .. وما لبث ان وضع يده فوق عينيها ، ووقف لحظة وقد بدا عليه انه يستعيد سيطرته على نفسه ، ثم تحول ثانية إلى كاثرين قائلا فى هدوء مفتعل :

ـ يجب أن تتعلمى كيف تتحاشين اثارة انفعـالى ، وإلا قتلتك حقا يوما من الأيام !.. اذهبى الآن مع مسز دين ، وابقى معها ، واقصرى قحتك وسلاطة لسانك على أذنيها !.. اما هيرتون ايرنشو ، فلو رايته يصغى إليك ويعمل بوحيك ، فسوف ابعث به ليبحث عن لقمته حيث يستطيع ان يجدها !.. ان حبك سوف يجعل منه طريدا متسولا .. والآن ، خذيها يا نللى ، واتركونى جميعا .. دعونى !.. دعونى !

فأخذت سيدتى الصغيرة إلى الخـارج ، وكانت فرحتها بالخلاص من يده قد غلبت رغبتها فى المقاومة .. وتبعنـا الآخر ، وبقى مستر هيثكليف وحده فى الحجرة حتى موعد الغداء .. وكنت قد نصحت لكاثرين ان تتناول غداءها فى الطابق العلوى ، ولكنه ما ان راى مقعدها خاليا حتى ارسلنى لاستدعائها .. ولم يخاطب أحدا منا بكلمة ، ولم يتناول من الطعام إلا قليلا ، ثم انصرف على الأثر ، قائلا انه لن يعود إلا فى المساء ..

وقد اقام الصديقان فى حجرة الجلوس اثناء غيبته ، حيث سمعت هيرتون يصد ابنة عمته فى عبوس ، عندما همت بأن تدلى بأسرار مسلك حميها نحو والد الشاب ، إذ قال لها انه لن يحتمل كلمة للحط من قدر هيثكليف .. فلو كان الشيطان نفسه ، فان ذلك لا يعنى شيئا البتة !.. وسوف يقف إلى جانبه .. واضاف انه يفضل أن تعاود إهانتها له ، كما اعتادت من قبل ، على أن تتحول بها إلى مستر هيثكليف .. فازدادت كاثرين عنـادا عنـدما سمعت ذلك ، ولكنه وجد الوسيلة الناجعة ليجعلها تمسك لسانهـا ، بأن سـألها كيف يكون شعورها إذا سمعته يقول سوءا عن والدها ؟.. وعندئذ ادركت كاثرين أن ايرنشو كان يعد كرامة السيد من كرامته هو ، وانه كان متعلقا به بصلات أقوى من أن يستطيع العقل تحطيمها .. كانت تربطه به سلاسل صهرتها العادة وقساها طول العشرة بحيث يكون من القسوة أن تحاول فكاكها .. وقد أظهرت كاثرين الحين ، من طيبة القلب منـذ ذلك ما جعلها تتجنب كل شكوى أو تذمر ، بل وكل كلمة تنم على

كراهيتها لمستر هيثكليف ونفورها منه .. واعترفت لى بعد ذلك بأسفها على أن حاولت افساد العلاقة بينه وبين هيرتون.. والحق أننى لا أعتقد أنها همست بحرف واحد فى مسامع هذا الأخير ضد مضطهدها بعد ذلك ..

فلما انتهى ذلك الخلاف الطفيف بينهما ، ارتدا صديقين ثانية ، وانهمكا بعد ذلك فى مشاغلهما العديدة ، كتلميذ ومعلمته .. وأتيت لأجلس معهما ، بعد أن فرغت من عملى ، فشعرت بالراحة والسكينة عندما كنت أرقبهما ، بحيث غفلت عن انقضاء الوقت سريعا .. وأنت تعلم ، يا مستر لوكوود ، أنهما كلاهما يعدان طفلين لى إلى حد ما .. وقد ظللت طويلا فخورة بأحدهما ، وانى واثقة الآن من أن الآخر سوف ينال من نفسى تلك المنزلة نفسها .. ان طبيعته الأمينة المتوثبة الذكية قد نفضت عنها سريعا سحب الجهل والانحطاط التى نشأ فيها ، وكان مديح كاثرين الصادق المخلص خير حافز له على المثابرة .. وكأنما أضفى تألق ذهنه تألقا جديدا على محياه ، وأضاف إليه حيوية وثابة ونبلا أصيلا .. حتى كدت لا أتصور انه ذلك المخلوق نفسه الذى رأيته يوم اكتشفت سيدتى الصغيرة فى « مرتفعات ويذرنج » ، بعد رحلتها إلى صخور « بنستون كراجز » .. وفيما كانا يعملان ، وأنا أرمقهما فى اعجاب ، كان الغسق يقترب فى خطى حثيثة ، ويأتى معه بالسيد .. وكان مقدمه علينا بغتة ، وعلى غير انتظار ، إذ دخل من الباب الأمامى ، وألقى على ثلاثتنا نظرة شاملة قبل أن نستطيع أن نرفع رؤوسنا وننظر إليه .. فقلت

فى نفسى : « حسنا .. ما من منظر أكثر بهجة وأقل ضررا كهذا الذى يشملنا ، ومن العار حقا أن يفكر فى انتهارهما » .. كان وهج النار الأحمر يتألق على الرأسين الجميلتين ، ويكشف عن وجهين يفيضان بلهفة الطفولة واهتمامها .. فمع انه فى الثالثة والعشرين ، وهى فى الثامنة عشرة ، إلا أن كلا منهما كان لديه الكثير من الأشياء الجديدة عليه فى الأحاسيس والعلم بحيث لا يكابد أو يظهر تلك الميول المنبعثة عن نضج واع خال من الأوهام ..

ورفعا عيونهما معا لتلتقى بنظرات مستر هيثكليف .. ولعلك لم تلاحظ قط أن عيونهما متشابهة تماما ، وأنها نفسها عينا كاثرين ايرنشو .. فليس لكاثرين الحالية أى شبه بها غير ذلك ، إلا فى جبهتها العريضة ، وفى تقوس أنفها بما يجعلها تبدو متعجرفة متعالية ، سواء أرادت ذلك أم لم ترده .. أما هيرتون ، فان شبهه بعمته أبعد مدى .. شبه اعتاد أن يبدو غريبا دائما .. أما فى تلك اللحظة خاصة فكان مذهلا إلى حد بعيد ، لأن حواسه كانت متوفزة ، وملكاته العقلية قد نشطت نشاطا غير عادى .. واحسب ان هذا الشبه قد غل يدى مستر هيثكليف وأضعفه !.. فقد سار إلى المدفأة فى انفعال واضح ، ثم ما لبث أن سكن وهدأ عندما نظر إلى الفتى .. أو لعل انفعاله قد تغيرت بواعثه ومظاهره ، لأنه كان ما يزال باديا فى محياه بعد .. وتناول الكتاب من يد هيرتون ، وألقى نظرة على الصفحة المفتوحة ، ثم أعاده إليه دون أن يفوه بأية ملاحظة .. كل ما فعله هو أن أشار إلى

كاثرين بالانصراف !.. أما رفيقها فقد تلكأ قليلا قبل أن يمضى فى أثرها ، وكنت على وشك أن أتبعهما ، عندما أشار إلى أن أبقى جالسة مكانى ..

وبعد أن تحدث لحظة عن المنظر الذى شهده للتو . بدأ يقول :

ـ انها نهاية تافهة ، أليس كذلك ؟.. أليست خاتمة سخيفة لكل ما بذلت من جهود عنيفة ؟.. لقد جئت بالروافع والمطارق لأهدم هذين البيتين وأخربهما ، ورحت أدرب نفسى لأكون قادرا على العمل مثل هرقل ، حتى إذا ما استعددت لكل شىء ، وأصبح فى يدى ، إذا بالرغبة فى رفع حجر واحد من أحد السقفين تتلاشى كأن لم تكن !.. ان أعدائى القدماء لم يهزمونى .. وقد تكون هذه الآونة هى اللحظة الملائمة لكى أثأر لنفسى من ذريتهم .. وفى وسعى أن أفعل ذلك .. بل ما من أحد يستطيع أن يحول دونه .. ولكن أين الفائدة فى ذلك ؟.. اننى لم أعد أبالى بأن أضرب ضربتى .. وليس فى وسعى أن أجشم نفسى مشقة رفع يدى .. لكم يبدو ذلك كما لو كنت قد ظللت أعمل وأكد طول هذا الوقت لكى أقدم عرضا رائعا للشهامة والمروءة !.. ولكن ذلك أبعد ما يكون عن حالتى .. انما الحقيقة هى أننى فقدت القدرة على الاستمتاع بتدميرهما ، وأننى أصبحت أضن بنفسى عن التدمير والتخريب بغير ثمرة ..

ان هناك تبدلا غريبا فى طريقه إلى يا نللى .. وأنا الآن أجتاز ظله .. لقد فقدت كل اهتمام بحياتى اليومية العادية ،

بحيث أصبحت لا أكاد أذكر طعامى وشرابى .. ان هذين الاثنين اللذين غادرا الحجرة الآن هما وحدهما اللذان يحتفظان بمظهر مادى محدد أمامى .. وهذا المظهر سبب لى ألما يظل يتزايد حتى يبلغ مبلغ العذاب .. أما هى ، فلست أود أن أتكلم عنها ، ولا أريد أن أفكر فيها ، ولكنى أتمنى من كل قلبى لو أنها كانت مختفية عن أنظارى ، فان وجودها لا يثير فى نفسى إلا مشاعر تبعث على الجنون . .ولكنه هو ، يحرك مشاعرى على نحو يختلف عن ذلك تماما ، ولو استطعت ـ دون أن أبدو مجنونا ـ لما كنت أراه بعد ذلك قط ..

ولاحت على شفتيه ابتسامة مغتصبة باهتة ، وهو يستطرد قائلا :

ـ وربما ظننتنى مشرفا على الجنون لو حاولت أن أصف لك آلاف الصور عن ذكريات الماضى وأفكاره التى يوقظها أو يجسدها أمامى .. ولكنى أعلم أنك لن تتحدثى بما سوف أقوله لك ، كما أن عقلى طال عليه الأمد فى عزلته وانطوائه على نفسه ، حتى اشتاق أخيرا إلى أن يشرك معه غيره ..

منذ خمس دقائق كان هيرتون أمامى صورة لشبابى تجسدت أمامى ، ولم يكن بالنسبة لى كائنا بشريا !.. كنت أراه وأحس به بطرق مختلفة ، حتى أصبح من المحال أن أبداه الكلام بطريقة معقولة !.. فان شبهه المروع بكاثرين(١)

(١) يقصد كاثرين رفيقة صباه وأم كاثرين الشابة .

بادىء ذى بدء ، يجعله مقترنا بها إلى حد مخيف .. ومع ذلك فهذا الذى قد تحسبينه أقوى الأسباب لشل خيالى ، انما هو فى الواقع اقلها شانا !.. وإلا فأى شىء حولى لا يقترن بها ؟.. وأى شىء حولى لا يذكرنى بها ؟.. اننى لا استطيع ان انظر إلى أرض هذه الحجرة دون أن أرى ملامحها مصورة فى كل مربع منها !.. أراها فى كل سحابة ، وفى كل شجرة.. أراها تملأ الهواء بالليل ، والمحها فى كل شىء بالنهار .. تحيط بى صورتها أينما كنت .. ان وجوه الرجال والنساء العاديين ـ بل أساريرى نفسها ـ تهزأ منى وتسخر بى بما تبديه من شبه بها !.. ان الدنيا بأسرها مجموعة مخيفة من التقارير تثبت انها لا تزال موجودة ، واننى قد فقدتها !.. حسنا .. لقد كانت صورة هيرتون شبح غرامى الخالد ، ومحاولاتى الضارية للتعلق بحقوقى .. وهوانى ، وكبريائى ، وسعادتى ، وعذابى !

ولكن من الجنون أن أردد هذه الخواطر على مسامعك .. كل ما فى الأمر انها سوف تجعلك تدركين لماذا كنت لا ارى فى صحبته خيرا ، برغم نفورى من البقاء بمفردى دائما .. بل انها تزيد فى عمق الألم الدائم الذى أكابده !.. وتساهم فى جعلى غير مكترث لعلاقته بابنة عمته .. فالواقع أننى لم أعد قادرا على أن أوليهما أى اهتمام .. » .

ـ ولكن ما الذى تعنيـه بأن تغييرا ما سوف يحل بك يا مستر هيثكليف ؟

قلت ذلك وقد أقلقتنى حالته ، برغم انه لم يكن فيما أرى معرضا لخطر الجنون أو الموت ، كان فى عنفوان قوته وصحته .. أما عن حالته العقلية ، فانه كان منذ طفولته يجد متعته فى الاستغراق فى الأفكار السوداء ، والتعلق باوهام عجيبة !.. وربما كان مصابا بذلك النوع من الجنون الذى يتركز فى شىء واحـد .. فى موضوع معبودته الراحلة !.. ولكن قـواه العقلية ، فى غير ذلك من الأمور جميعا ، لم تكن تقل سلامة عن قواى ..

فأجاب :

ـ اننى لن اعرفه إلا عند مقدمه .. كل ما هنالك اننى أحس به فى غموض ..

ـ الا تحس بأعراض المرض ؟

ـ كلا يا نللى . ليس بى شىء من ذلك ..

ـ ألا تكون ، إذن ، خائفا من الموت ؟

ـ خائفا ؟.. كلا .. فما بى خوف من الموت ، ولا أنا اتوقعه ، ولا أرجوه وأتمناه .. ولماذا ينبغى أن تساورنى هذه المخاوف ؟.. اننى مع تكوينى القوى ، ونظام معيشتى المعتدل ، وعدم تعرضى للمخاطر فى أعمالى ، كل ذلك ينبغى معه ـ بل يحتمل أن يحـدث فعلا ـ أن اظل فوق سطح الأرض حتى لا تبقى فى رأسى شعرة سوداء !.. ومع ذلك فلا أرانى قادرا على الاستمرار على هذه الحال .. ان على الآن أن اذكـر نفسى بأن اتنفس ، وأكاد أذكـر قلبى بأن ينبض!.. ان الأمر معى يشبه زمبركا صلبا ثنى إلى الخلف..

فلو قمت بأقل عمل لا يدفعنى إليه عزم معين ، فانما أساق إلى ذلك سوقا .. ولو انتبهت إلى شيء ، حى أو ميت ، لا يقترن عندى بفكرة عامة فانما افعل ذلك برغم أنفى .. لم تبق لى إلا رغبة وحيدة يتلهف كيانى كله وحواسى كلها شوقا إلى بلوغها .. وقد ظلت تتوق إليها وتتلهف عليها طويلا ، وفى غير تردد او احجام ، بحيث أصبحت مقتنعا باننى سوف أبلغها ، وفى اقرب وقت ، لأنها فغرت فاها ، والتقمت وجودى كله !.. ان تعجلى وقوعها قد ابتلعنى واطبق فمه على .. ولا تظنى ان هذا الاعتراف قد اراحنى ، أو ازاح ما يثقل كاهلى ، وإنما هو تفسير لأشياء اخرى فى مسلكى وتصرفاتى كانت غامضة مبهمة .. آه يا إلهى !.. لقد طال الصراع ، فليته يبلغ نهايته !

وبدأ يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، ويتمتم بأشياء رهيبة غير مفهومة ، حتى ملت إلى الاعتقاد ، مثلما قال أن جوزيف قد اعتقده ، بأن الضمير قد أحال قلبه إلى جحيم دنيوى !.. وعجبت كثيرا كيف يمكن أن ينتهى ذلك كله .. فعلى الرغم من أنه قلما كشف فى الماضى عن حالته العقلية ، ولو فى نظراته ، فلست اشك فى أن هذه هى طبيعته العادية .. وهو نفسه الذى يؤكدها ، لأنه ما من إنسان كان يستطيع أن يتكهن بالحقيقة ، من مظهره العام .. وانت نفسك ، يا مستر لوكوود ، لم تدرك شيئا عن حقيقته عندما رأيته ، وقد كان فى الفترة التى أتحدث عنها لا يختلف فى شيء عما كان وقتئذ ، إلا انه كان أكثر ولعا بالوحدة ، وأقل كلاما مع الناس .

***

الفصل الرابع والثلاثون

ظل مستر هيثكليف عدة أيام بعد تلك الأمسية يتجنب لقاءنا فى اوقات الطعام . .على أنه لم يكن يرضى بأن يستبعد هيرتون وكاثى من محضره بصورة ظاهرة .. كان ينفر من الخضوع لمشاعره والاستكانة لأحاسيسه ، فاختار ان يغيب ساعة الطعام .. وكان يبدو أن وجبة واحدة يتناولها فى الأربع والعشرين ساعة كافية لتقيم أوده ..

وبعد ان أوت العائلة كلها إلى الفراش ذات ليلة ، سمعته يهبط الدرج ، ويغادر البيت من الباب الأمامى .. ولم أسمعه يعود إلى الدار ، ثم تبينت فى الصباح أنه ما يزال فى الخارج .. كنا وقتئذ فى شهر أبريل ، وكان الجو صحوا دافئا ، وأشجار التفاح القصيرة عند الجدار الجنوبى مليئة بالأزهار والبراعم .. فلما فرغنا من طعام الافطار ، ألحت على كاثرين فى أن أحضر شغلى ومقعدى ، واجلس تحت اشجار الشربين فى الطرف الأقصى من المنزل ، ثم اغرت هيرتون ـ الذى كان قد شفى تماما من اصابته ـ بأن يحفر ويسوى حديقتها الصغيرة ، التى نقلت إلى ذلك الركن على أثر شكوى جوزيف وبسببها .. وكنت أنعم فى مجلسى بعبير زهور الربيع حولى ، والزرقة الجميلة الهادئة فوق رأسى ، عندما رجعت سيدتى الصغيرة ـ وكانت قد ذهبت لتحضر بعض جذور عنب الديب من خمائلها بالقرب من البوابة ليغرساها حول أحواض الزهور ـ تحمل القليل منها ، واخبرتنا أن مستر هيثكليف عاد إلى الدار ، ثم اضافت وقد علت الحيرة اساريرها :

— وقد كلمنى !

فسألها هيرتون :

— وماذا قال لك ؟

— طلب إلى أن أبتعد عنه بأسرع ما يمكننى !.. ولكنه كان يبدو مختلفا كل الاختلاف عن مظهره المعتاد بحيث وقفت لحظة أحدق النظر فى وجهه ..

— وكيف ؟

— انه يكاد يكون مرحا وضاء المحيا .. كلا .. ان ذاك لا يكفى لوصفه .. كان شديد الانفعال ، يطفح وجهه بشرا وسرورا ضاريا ..

فقلت متظاهرة بعدم الاكتراث :

— ان النزهات الليلية تسليه كثيرا إذن ..

ولكنى فى الحقيقة كنت أشد منها دهشة ، وتلهفت على التحقق من صدقما قالته .. فان رؤية السيد مرحا مسرورا ليست من المشاهد العادية التى يراها المرء كل يوم .. وانتحلت عذرا لقيامى ، ثم مضيت إلى الداخل .. وكان مستر هيثكليف يقف فى فتحة الباب ، شاحب الوجه ، يرتعد بدنه رعدة واضحة .. ولكن من المحقق أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب يفيض سرورا ، ويبدل شكل وجهه تبديلا ..

فقلت :

— الا تريد بعض الطعام لإفطارك ؟

وكنت أريد أن أكتشف أين قضى ليلته ، ولكنى لم أرد سؤاله مباشرة ، فأردفت أقول :

— لابد أن تكون جائعا الآن بعد أن ظللت تجول فى الخارج الليل بطوله ..

فأشاح بوجهه وقال فى شىء من الازدراء كأنما حدس محاولتى فى استكناه سبب مرحه وانطلاقه :

— كلا .. لست جائعا !

فشعرت بالحيرة والارتباك ، ولم أدر ما إذا كانت الفرصة سانحة لألقى عليه قليلا من النصح والارشاد ، فقلت :

— لا أظن من الصواب أن تقضى الليل هائما على وجهك فى الخارج ، بدلا من أن تقضيه فى الفراش ، فان ذلك ليس من الحكمة فى شىء ، فى هذا الفصل الشديد الرطوبة .. وفى ظنى انك سوف تصاب ببرد أو حمى ، فان بك شيئا ما الآن !

— ليس بى الا ما أطيق احتماله ، وبسرور عظيم ، على ان تتركينى وشأنى .. امضى إلى الداخل ، ولا تضايقينى !

قاطعته .. ولاحظت أثناء مرورى بجانبه أن أنفاسه كانت سريعة متلاحقة كأنفاس القطط .. فقلت لنفسى :

— نعم .. سوف تصيبه نوبة من المرض .. ولكنى لا أفهم ما الذى كان يفعله ..

وفى ظهر ذلك اليوم ، جلس معنا على مائدة الغداء ، وتلقى من يدى طبقا مليئا بالطعام ، كأنما يريد أن يعوض ما فاته فى صومه الماضى .. ولم يفته أن يشير إلى حديثى معه فى الصباح ، فقال :

ـ ليس بى برد أو حمى يا نللى .. وسوف ترين اننى على استعداد لالتهام الطعام الذى قدمته لى !

وتناول شوكته وسكينته ، وهم بأن يبدأ طعامه ، عندما بدا كأنما غاضت شهيته فجأة ، فوضعهما امامه على المائدة ثانية ، وراح يتطلع نحو النافذة فى لهفة . وما لبث أن نهض وانطلق إلى الخارج .. ورأيناه يذرع الحديقة ذهابا وجيئة بينما رحنا نتم طعامنا ، وعندئذ قال ايرنشو انه سوف يذهب ويسأله عن سبب عدم رغبته فى الطعام ، فقد ظن أننا كدرناه بطريقة ما ..

فلما رجع صاحت كاثرين تسأله :

ـ حسنا .. هل هو قادم ؟

ـ كلا .. ولكنه ليس جائعا .. وهو يبدو وقد غمره سرور نادر الوقوع حقا .. غير أنه ضاق بى ذرعا عندما خاطبته مرتين ، فطلب إلى أن أتركه وألحق بك ، وأبدى عجبه كيف يمكننى أن أنشد صحبة أى انسان غيرك !

ووضعت طبقه فوق حاجز المدفاة ليظل ساخنا .. وقد عاد إلى الحجرة بعد ساعة أو ساعتين عند ما كانت خالية منا .. ولكنه لم يبد أكثر هدوءا وسكينة .. كانت تبدو

تحت حاجبيه الأسودين تلك النظرة الغريبة نفسها التى تفيض بهجة وسرورا ، وهى نظرة غريبة شاذة حقا .. ثم ذلك اللون الشاحب نفسه ، كأن وجهه قد خلا من الدماء .. كان فمه منفرجا ، وأسنانه بادية للعيان ، فى نوع من الابتسام الغريب ! .. وكان بدنه كله يرتجف ، لا كما يرتجف المرء من البرد أو الضعف ، بل كما يرتج وتر مشدود إلى أقصى احتماله .. كان ما به هزات قوية ، اكثر منها رعدة عادية ..

وقلت لنفسى اننى سوف أسأله عما دهاه .. ومن غيرى اخلق بسؤاله ؟ .. فهتفت قائلة :

ـ هل تلقيت أية أنباء سارة يا مستر هيثكليف ، فانك تبدو منتعشا إلى حد غير مألوف ؟

ـ ومن أين تأتينى الأنباء السارة ؟ .. إننى منتعش بسبب الجوع ، ولكنى ، فيما يبدو ، لا ينبغى أن آكل شيئا ..

ـ ان طعامك هنا على المدفأة ، فلماذا لا تتناوله ؟

فغمغم فى عجلة :

ـ لست أريده الآن ، وسوف أنتظر حتى العشاء .. ثم اننى ارجوك يا نللى للمرة الأخيرة ، أن تنذرى هيرتون والأخرى بأن يبعدا عن طريقى .. اننى لا أريد أن يزعجنى أحد ، واريد أن تكون لى هذه الحجرة وحدى ..

فسألته :

ـ هل من سبب جديد لهذا الابعاد ؟ .. خبرنى لماذا تبدو غريبا إلى هذا الحد يامستر هيثكليف ؟ .. وأين كنت

فى الليلة الماضية ؟ .. اننى لا القى عليك هذه السؤال لمجرد الفضول وحب الاستطلاع ، ولكن ..

فقاطعنى ضاحكا :

ـ بل انك تلقين هذا السؤال باشد ما يكون الفضول وحب الاستطلاع .. ومع ذلك فسوف أجيب عنه .. لقد كنت فى الليلة الماضية على أعتاب الجحيم !.. اما اليوم فانى على مرمى البصر من جنتى !.. ان عينى مركزتان عليها ، ولا يبعدنى عنها غير ثلاثة اقدام !.. والآن ، خير لك أن تنصرفى ، ولن ترى او تسمعى شيئا يفزعك ، ولو امتنعت عن التجسس والتلصص !

فانصرفت خارجة ، بعد أن نظفت الأرض والمائدة ، وأنا أشد ما أكون حيرة واضطرابا ..

ولم يفارق حجرة الجلوس ثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، كما لم يتطفل أحد على وحدته وعزلته .. حتى إذا ما بلغت الساعة الثامنة ، قدرت أن من الأفضل أن أحمل إليه عشاءه وشمعة موقدة ، برغم انه لم يدعنى .. فرأيته مستندا إلى حافة نافذة مفتوحة ، ولكنه لم يكن ينظر إلى الخارج ، بل كان يدير وجهه نحو داخل الحجرة المعتمة .. وكانت النار فى المدفأة قد تحولت إلى رماد ، وامتلأت الحجرة بهواء تلك الامسية التى تحفل سماؤها بالسحب ، ذلك الهواء البارد المشبع بالرطوبة .. وكان الجو ساكنا بحيث لم نكن نميز همسات المياه فى قناة « جيمرثون » فحسب ، بل كنا نسمع قرقرتها وخريرها فوق الحصى وخلال الأحجار الكبيرة التى

تعترض سبيلها .. فصحت فى سخط إذ رأيت الموقد موحشا كئيبا ، وبدات أغلق النوافذ واحدة بعد الأخرى ، حتى بلغت النافذة التى يجلس بجوارها ، فقلت :

ـ هل يجب أن اغلق هذه ايضا ؟

وكنت أرمى إلى ان انبهه حتى ينهض من مكانه ، لأنه لم يكن يريد أن يتحرك قط .. وعندئذ ومض ضوء الشمعة فوق أساريره ..

اواه يامستر لوكوود ! .. اننى لا أستطيع ان اعبر لك عن الانتفاضة الفظيعة التى هزت كيانى هزا من ذلك المنظر الذى وقعت عليه أنظارى فى تلك اللحظة القصيرة !.. هاتان العينان السوداوان العميقتان !.. وهذه الابتسامة !.. وذلك الشحوب الذى يشبه صفرة الموتى !.. انه لم يكن يبدو أمامى مستر هيثكليف ، وإنما كان ماردا من الجن !.. وفى غمرة الفزع الذى الم بى ، تركت الشمعة تميل على الجدار فانطفات وتركتنى فى الظلام ..

وعندئذ اجاب بصوته المألوف :

ـ نعم .. اغلقيها .. ولكن حسبك هذا التخبط !.. لماذا أمسكت بالشمعة فى وضع أفقى ؟.. أسرعى ، واحضرى غيرها ..

فهرعت خارجة فى فزع أحمق ، وقلت لجوزيف :

ـ ان السيد يريد أن تحمل إليه ضوءا وتشعل النار فى المدفأة ..

فاننى لم أجد الجراة على الذهاب إلى هناك مرة أخرى وقتئذ ..

وحمل جوزيف بعض الجمر فى المجرفة، ومضى إلى الداخل.. ولكنه عاد بها على الفور ، وفى يده الأخرى صفحة الطعام ، قائلا إن مستر هيثكليف قام ليذهب إلى فراشه ، وانه لا يريد شيئا من الطعام حتى الصباح .. وسمعناه للتو يصعد الدرج ، ولكنه لم يذهب إلى حجرته العادية ، بل تحول نحو تلك الحجرة الأخرى التى تحوى الفراش ذا الخزانة الخشبية .. وكانت نافذتها ، كما أخبرتك من قبل ، عريضة تكفى لمرور أى شخص منها ، فطرأ على فكرى انه يدبر رحلة أخرى من رحلات منتصف الليل ، لا يريد أن نشك فى أمرها او نعرفها ..

قلت لنفسى : « أيكون غولا أم من مصاصى الدماء ؟ » .. فقد سبق أن قرأت عن مثل هذه الشياطين الفظيعة المتجسدة ..

ولكنى ما لبثت أن ركزت تفكيرى فى تذكر كيف تعهدته فى طفولته ، وأشرفت عليه وهو ينمو إلى طور الشباب ، وكيف لازمته خلال حياته كلها تقريبا ، فبدا لى من السخف أن استسلم لمثل هذا الشعور بالفزع !.. ولكن الوساوس والخرافات عادت تهمس لى ، بينما كان النعاس يقود خطاى نحو اللاشعورية : « ولكن من أين أتى ذلك الشىء الأسمر، الذى آواه رجل طيب ـ ذات يوم ـ فحاق به وبأسرته الدمار ؟.. » وبدأت ، فيما يشبه الحلم ، أكد ذهنى فى تخيل من يصلح لأن

يكون والده ، او والدته !.. ثم رحت أستعيد تأملات اليقظة ، واستعرض حياته كلها مرة اخرى ، مع اختلافات قاتمة .. واخيرا صورت موته وجنازته التى لا أذكر عنها إلا ما انتابنا من الضيق عندما اردنا ان نملى العبارة التى تكتب على قبره ، وكيف استشرت حفار القبور فى ذلك .. لم يكن له اسم ، ولم نكن نعرف عمره ، فاضطررنا إلى أن نقنع بكلمة واحدة هى « هيثكليف » .. وقد صح حلمى فى ذلك ، لأن هذا ما حدث فعلا .. ولو دخلت إلى المقبرة لما قرأت على شاهد قبره إلا هذه الكلمة ، وتاريخ موته ..

وأعاد لى بزوغ الفجر هدوئى واتزانى ، فنهضت وخرجت إلى الحديقة ، بمجرد أن أصبحت الرؤية ممكنة ، لأتحقق مما إذا كانت هناك آثار أقدام تحت نافذته .. ولكنى لم أجد شيئا منها .. فقلت لنفسى : « لقد بقى فى المنزل ، وسوف يكون بخير اليوم » .. وأعددت طعام الافطار لأهل المنزل جميعا ، كعادتى كل يوم ، ولكنى طلبت إلى هيرتون وكاثرين أن يتناولا افطارهما قبل أن ينزل السيد ، لأنه تأخر فى النوم .. ففضلا أن يتناولاه فى الحديقة تحت الأشجار ، وزودتهما بمائدة صغيرة حتى يجلسا فى راحة ..

فلما عدت إلى المنزل وجدت مستر هيثكليف فى الطابق السفلى .. كان يتحدث مع جوزيف عن بعض شئون الزراعة ، ويصدر أوامر واضحة دقيقة فى الأمر الذى كانا يبحثانه .. ولكنه كان يتكلم فى عجلة ، ويدير رأسه جانبا باستمرار ، وفى محياه طابع ذلك الانفعال نفسه ، بل لقد

ازداد مغالاة فيه .. فلما غادر جوزيف الحجرة ، اتخذ مجلسه فى المكان الذى يفضله عادة ، وعندئذ وضعت أمامه قدحا كبيرا من القهوة .. فأدناه إليه ، ثم مد ذراعيه فوق المائدة ، ونظر إلى الجدار المقابل وهو يتفرس ـ كما حسبت ـ فى قسم معين منه ، إلى الأعلى وإلى الأسفل ، بعينين قلقتين لامعتين ، وفى اهتمام ولهفة بحيث كف عن التنفس أكثر من نصف دقيقة !

فدفعت إلى يده قطعة من الخبز ، قائلة :

ـ هيا .. خذ هذه فكلها ، واشرب قهوتك وهى ساخنة ، فقد انتظرت الافطار ما يقرب من الساعة ..

ولكنه لم ينتبه إلى .. ومع ذلك كان يبتسم باستمرار .. ووددت لو أننى أراه يصر على أسنانه ويكشر عن أنيابه ، فذلك خير من هذه الابتسامة .. وعندئذ صحت :

ـ مستر هيثكليف !.. سيدى !.. بحق السماء لا تحملق بأنظارك هكذا كأنك ترى مشهدا خارقا للطبيعة ..

فأجاب :

ـ وبحق السماء لا تصرخى هكذا عاليا !.. انظرى حواليك وخبرينى هل نحن وحدنا ؟

ـ طبعا !.. إننا وحدنا طبعا !

ومع ذلك فاننى أطعته بحركة غير إرادية ، كما لو كنت غير واثقة تماما .. وعندئذ ازاح اوانى الإفطار بحركة من يده وأفسح بينها مكانا أمامه ، ثم مال إلى الأمام ليمعن النظر فى مزيد من الراحة واليسر ..

وفى تلك اللحظة تبينت انه لم يكن ينظر إلى الجدار .. لاننى عندما ركزت انتباهى فيه وحده ، كان يبدو تماما كأنما يحدق النظر فى شىء يبعد عنه بنحو ياردتين .. ومهما يكن من أمر ذلك الشىء ، فانه كان فيما يظهر ، ينقل إليه السرور والألم معا ، بأقصى ما فى كليهما من سحر .. أو على الأقل هذا ما كانت توحى به تعبيرات وجهه التى تنبض بالعذاب واللوعة والنشوة معا !.. ولم يكن ذلك الشىء الذى يتخيله ثابتا .. فقد كانت كلتا عينيه تتبعانه فى مثابرة لا تكل ، وكانتا حتى وهو يتحدث إلى ، لا تتحولان عنه ولا تطرفان .. وعبثا كنت أذكره بزهده الطويل عن الطعام .. فكلما استجاب لضراعتى مرة ، وتحرك ليمس شيئا منه ، ومد يده ليتناول قطعة من الخبز ، كانت أصابعه تنقبض وتتقلص قبل أن يصل إليها ، وتظل كذلك ممدودة فوق المائدة ، غافلة عن هدفها ..

وظللت جالسة ، مثالا للصبر والأناة ، أحاول بين وقت وآخر أن أثير انتباهه ، وأنتزعه من تأملاته التى تستغرقه كله ، حتى ضاق بى ذرعا ، ونهض متململا ليسألنى لماذا لا أسمح له بأن يتناول طعامه على مهل ؟.. ثم ليقول لى أن لا حاجة بى إلى الانتظار معه فى المرة القادمة ، بل على أن أعد المائدة وانصرف .. وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى غادر المنزل ، ومضى يسير فى ممر الحديقة متلكئا ، حتى اختفى عن الأنظار وهو يجتاز البوابة ..

ومضت بى الساعات تزحف فى قلق وانشغال ، وحلت ليلة أخرى .. ومكثت ساهرة ، فلم أذهب إلى حجرتى

لأنال قسطى من الراحة إلا فى وقت متأخر .. وعندئذ لم يطرق النوم عينى .. أما هو فقد عاد بعد منتصف الليل ، ولكنه بدلا من أن يأوى إلى حجرته ، أوصد على نفسه باب الحجرة السفلى .. فرحت انصت وارهف السمع واتململ فى الفراش ، واخيرا قمت فارتديت ثيابى وهبطت إلى الطابق الأرضى .. فقد كان من المضنى أن أظل راقدة أرهق مخى بمئات من الشكوك والأوهام .. وتبينت خطوات مستر هيثكليف وهو يذرع الحجرة فى قلق واضطراب . كأنما كان يقيس البلاط .. وكان كثيرا ما يخرق السكون بتنهد عميق اشبه بالأنين .. وكان كذلك يتمتم بكلمات متقطعة لم أستطع أن أميز منها إلا اسم كاثرين مقترنا بألفاظ وحشية تنم على الاعزاز والتدليل أو الألم .. وكان ينطق بهـا كأنما يخاطب شخصا حاضرا أمامه ، فى صوت خافت ولهفة مضطرمة ، كأنما يعتصرها من أعماق قلبه .. ولم أجد الجرأة على اقتحام الحجرة مباشرة ، ولكنى كنت أود أن انتزعه من أحلامه ، فمضيت إلى المطبخ ونفست عن صدرى بتقليب نيران المدفأة وإزالة رمادها .. وقد جذبه ذلك بأسرع مما توقعت ، فقد فتح الباب على الفور ، وقال :

ـ تعالى إلى هنا يا نللى ، واحضرى معك ضوءا !.. هل نحن فى الصباح الآن ؟

ـ انهـا تدق الرابعة .. اتريد شمعة لتصعد بهـا إلى حجرتك ؟.. كان ينبغى أن تشعل واحدة من نار الموقد ..

ـ كلا .. لست أريد أن أصعد إلى حجرتى .. ادخلى ، وأشعلى لى نارا ، وافعلى اى شىء هنا فى الحجرة ..

ـ ولكن يجب أن أنفخ على الفحم المتقـد أولا قبـل أن أستطيع احضار شىء منه إلى هناك ..

ثم حملت مقعدا ، واخذت المنفاخ وجلست أمام النار .. أما هو فكان فى هذه الأثناء يهيم على وجهه ذهابا وجيئة وفى حالة تقرب من الذهول .. وكانت تنهداته الثقيـلة تتتابع واحدة فى إثر الأخرى بحيث لا تكاد تترك بينها فراغا للتنفس .. وما لبث أن قال :

ـ عندما يطلع النهار سوف أبعث فى طلب جرين .. فانى اريد ان أستوضحه بعض الأمور القانونية بينما أنا قادر على التفكير فى مثل هذه الأمور ، وبينمـا أستطيع التصرف فى هدوء .. اننى لم أكتب وصيتى بعد ، ولم أقرر حتى الآن كيف أترك ثروتى .. وشد ما وددت لو اننى أستطيع محوها من على ظهر الأرض !

فتدخلت قائلة :

ـ اننى ما كنت لأقول ذلك يا مستر هيثكليف .. دع أمر وصيتك فترة أخرى ، فما زال أمامك ما يكفى من الوقت للتكفير عن مظالمك الكثيرة !.. وما توقعت البتة أن تنهار اعصابك إلى هذا الحد .. نعم ، فانها الآن قد بلغت غاية الانهيار .. ويكاد يكون ذلك كله راجعا إلى غلطتك ، فان الطريقة التى قضيت بها الأيام الثلاثة الأخيرة خليقة بأن تصرع الجبابرة .. فهلا تناولت بعض الطعام ، ونلت شيئا من الراحة ؟.. يكفيك أن تنظر إلى نفسك فى المرآة لترى مبلغ

حاجتك إلى كليهما .. لقد برزت عظام وجنتيك ، وأصبحت عيناك فى لون الدماء ، اشبه بشخص يوشك على الموت جوعا ويوشك على فقد بصره سهدا ..

فأجاب :

ـ انها ليست غلطتى اننى لا استطيع ان آكل أو أستريح ، وثقى أن ذلك ليس خطة موضوعة أرمى بها إلى هدف معين .. فسوف آكل واستريح عندما أجد ذلك فى قدرتى .. ولكنك كمن يأمر رجلا يصارع الأمواج بأن يرتاح وهو على قيد ذراع من الشاطىء !.. يجب أن أبلغه أولا ، ثم أستريح بعدئذ !.. حسنا .. دعينا من مستر جرين الآن !.. أما التكفير عن جورى وعسفى ، فانى لم أقترف جورا أو عسفا ، وليس لدى ما اندم عليه أو اكفر عنه !.. اننى سعيد غاية السعادة ، ومع ذلك فاننى لست سعيدا إلى الحد الذى يكفينى !.. ان هناء روحى هو الذى يقتل جسدى ، ولكنه مع ذلك لا يشبع روحى نفسها !

فصحت به :

ـ سعيد يا سيدى ؟.. ما اغربها من سعادة !.. ولكنك إذا رضيت بأن تستمع لى بغير غضب ، فربما استطعت أن أسدى إليك نصيحة تجعلك أعظم سعادة ..

فسألنى :

ـ ما هى ؟.. هاتيها ..

ـ انك تعلم تماما يا مستر هيثكليف أنك منذ أن كنت فى الثالثة عشرة من عمرك ، كنت تعيش حياة ملؤها الأثرة ، مجردة من التقى والتدين ، بل لعلك لم تمسك فى يدك كتابا مقدسا طوال هذه المدة .. ولابد أن تكون قد نسيت ما فيه ، وربما لا تجد الآن فسحة من الوقت لدراسته بنفسك .. فهل يضيرك أن تبعث فى طلب احد رجال الدين ـ من أى مذهب ، فان ذلك ليس بذى بال ـ ليشرح لك أوامره ونواهيه ، ويريك إلى اى حد شردت بعيدا عن احكامه ، وكيف اصبحت بذلك غير خليق بجنة السماء ، ما لم يحدث تغيير فى نفسك قبل أن تموت ؟

ـ ان شكرى لك يا نللى يحجب غضبى منك .. لانك ذكرتنى بالطريقة التى أريد أن أدفن بها !.. أريد أن يحمل جثمانى إلى المقبرة فى المساء ، ويمكن لك ولهيرتون أن تصحبانى إليها ، إذا شئتما !.. وعليك أن تحرصى ، بصفة خاصة ، على إطاعة حفار القبور لتعليماتى بشأن التابوتين !.. وما من حاجة لحضور أحد رجال الدين ، أو الصلاة على قبرى !.. فانى اقول لك اننى اوشكت على بلوغ جنتى .. أما جنة الآخرين فلا أقيم لها وزنا ولا أشتهيها !

فقلت وقد فجعنى كفره وعدم اكتراثه :

ـ وهب انك ثابرت على صومك وعنادك ، مما أدى إلى موتك ، ورفضوا ان يدفنوك فى فناء الكنيسة ؟.. فكيف ترضى عن ذلك ؟

— انهم لن يفعلوا ذلك !.. ولو فعلوه . فيجب أن تتولى نقلى خفية !.. اما إذا أهملت ذلك ، فسوف يثبت لك ، عمليا ، أن الموتى لا يتلاشون نهائيا !

وما كاد يسمع أفراد العائلة الآخرين وقد دبت حركتهم فى البيت ، حتى انسحب إلى عرينه .. وعندئذ تنفست الصعداء !.. ولكنه أتى إلى المطبخ ثانية بعد الظهر ، بينما كان جوزيف وهيرتون غائبين فى عملهما ، وطلب منى ، وهو يرمقنى بنظرات وحشية ، ان اذهب لاجلس معه فى حجرة الجلوس .. كان يريد اى شخص معه .. ولكنى ابيت ، وافهمته صراحة أن حديثه ومسلكه الغريبين قد أفزعانى ، وأنه ليس بى من رغبة ، أو أعصاب ، لأكون رفيقته وحدنا ..

فاطلق ضحكته البشعة ، وقال :

— أحسبك تظنيننى شيطانا .. شيئا فظيعا لا يليق لأن يعيش تحت سقف بيت محترم ..

ثم تحول إلى كاثرين ، التى كانت معى ، والتى احتمت خلفى عند اقترابه ، واستطرد يقول فيما يشبه التهكم :

— هل لك أن تأتى ، يا دجاجتى !.. اننى لن أؤذيك .. كلا ؟.. لقد جعلت نفسى فى نظرك اسوا من الشيطان إذن ! .. حسنا .. ان هناك واحدة لا تنفر من صحبتى .. يا إلهى !.. انها خالية من الرحمة ، لا تلين !.. يا للعنة !.. ان ذلك مما لا يطيقه إنسان من لحم ودم ، حتى انا !

ولم يعد ينشد رفقة أحد بعد ذلك ، وعند الغسق أوى إلى حجرته .. وكنا نسمعه أثناء الليلة بطولها ، وحتى الصباح المتأخر ، لا يكف عن الأنين أو يكلم نفسه .. فاستبد القلق بهيرتون ، وأراد أن يدخل عليه حجرته ، ولكنى طلبت إليه أن يذهب لإحضار الطبيب كينيث ، ليدخل إليه ويفحصه .. فلما أتى الطبيب ، رحت أتوسل إليه أن يسمح لنا بالدخول ، وحاولت فتح الباب ، فوجدته موصدا .. وعندئذ انطلق هيثكليف يسبنا ويلعننا ويقول انه أحسن حالا ، ويريد ان ندعه وشأنه .. وهكذا عاد الطبيب من حيث أتى ..

وكانت الليلة التالية غزيرة المطر .. والواقع انه ظل ينهمر حتى مطلع الفجر .. فلما مضيت اقوم بجولتى حول المنزل كعادتى كل صباح ، وجدت نافذة حجرة السيد مفتوحة ، والهواء يطوح مصاريعها ، والمطر يتدفق إلى الداخل .. فقلت لنفسى انه لا يمكن أن يكون فى فراشه .. فان هذه السيول خليقة بأن تغرقه حتى تبلل عظامه .. ولابد أن يكون قد استيقظ من نومه ، أو انه غادر المنزل .. ولكنى لن أثير ضجة او جلبة ، بل سوف اذهب فى جراة لأرى الحقيقة بنفسى ..

وافلحت فى الدخول إلى الحجرة بمعونة مفتاح آخر ، ثم اسرعت لأزيح الألواح الخشبية لخزانة الفراش ، لأن الحجرة نفسها كانت خالية ، فدفعتها جانبا فى عجلة ولهفة ، واسترقت النظر إلى داخلها ..

كان مستر هيثكليف هناك ، راقدا على ظهره .. والتقت عيناه بعينى فاذا فيهما نظرة ثاقبة ضارية .. فأجفلت .. وعندئذ بدا كأنه يبتسم .. ولم يكن فى وسعى أن أحسبه ميتا ، ولكن المطر كان يغمر وجهه وعنقه ، وكانت أغطية الفراش تقطر ماء ، وكان هو جامدا بلا حراك !.. وكان مصراع النافذة ، والهواء يطوحه هنا وهناك ، قد كشط جلد إحدى يديه ، وكانت مستقرة على إفريز النافذة ، ولكنى لم أر أثرا للدماء حول الجلد المزق ، فلما لمسته بأصابعى ، لم يعد ثمة مجال للشك .. كان ميتا ، متيبسا !

ففتحت مصراعى النافذة وثبتهما ، ورحت أمشط شعره الأسود الطويل إلى الخلف ، لأزيحه عن جبهته .. ثم حاولت أن أغمض عينيه لأطفىء ــ ان استطعت ــ تلك النظرة الثاقبة المخيفة التى تنم عن الرضى والابتهاج ، وكأنها تنبض بالحياة ، قبل أن يراها أحد غيرى .. ولكنها لم تلن تحت أصابعى ، ولم تستجب لى ، بل كانت تبدو كأنما تهزأ بمحاولاتى !.. بل ان شفتيه المنفرجتين ، وأسنانه الحادة البيضاء ، كانت كأنما تهزأ بى هى الأخرى .. وعندئذ تملكتنى نوبة اخرى من الخور والجزع ، فصحت أستنجد بجوزيف ..

وصعد جوزيف الدرج فى جلبة وضوضاء ، وهو يجر قدميه جرا .. ولكنه رفض فى اصرار أن يكون له به شأن أو يمد إليه يدا ، وصاح :

ــ لقد خطف الشيطان روحه ، فليتول أمر جيفته أيضا !.. فما يعنينى ذلك فى شىء .. أف !.. انه يبدو شريرا حتى فى موته !

وكشر العجوز الأثيم عن تواجده فى سخرية واستهزاء ، وظننته يهم بأن يطوف حول الفراش راقصا ، ولكنه ما لبث أن استعاد سكينته ، وجثا على ركبتيه ، ورفع يديه إلى السماء ، ثم راح يتلو صلوات الشكر لله على استعادة سيد الدار الشرعى حقوقه الضائعة ، وتراثه التليد ..

أما انا فقد روعتنى وشلت حواسى تلك الحادثة الرهيبة .. غير ان ذاكرتى لم تملك إلا ان تعود إلى الأيام الخوالى فى نوع من الحزن الممض .. ولكن هيرتون المسكين ، وكان أكثرنا استهدافا للظلم ، كان الوحيد الذى عانى ألما حقيقيا .. فقد قضى الليل بطوله جالسا إلى جوار الجثة ، يبكى فى جزع مرير .. وكان يضغط على يده ، ويقبل ذلك الوجه الوحشى الساخر الذى كان كل انسان غيره يجفل من مرآه ، ويندبه بذلك الحزن القوى الذى ينبع بطبيعة الحال من قلب كريم ، مهما كان قاسيا كالصلب المطروق ..

وحار الطبيب كينيث فى تقرير سبب موت السيد .. واخفيت تلك الحقيقة الواقعة وهى أنه لبث أربعة أيام لم يذق خلالها شيئا ، خشية أن يقودنا ذلك إلى متاعب لا داعى لها .. ولكنى كنت مقتنعة أن صيامه كان نتيجة لمرضه الغريب ، لا سببا له ..

وقد قمنا بدفنه ، لدهشة أهل الجيرة جميعا واستنكارهم ، حسب مشيئته .. فلم يحضر دفنه سواى ، وسوى هيرتون ، وحفار القبور ، وستة رجال كانوا يحملون النعش .. وقد مضى الرجال الستة لشأنهم بعد أن أنزلوا التابوت فى القبر ،

ولكننا بقينا حتى أهيل عليه التراب .. وكانت الدموع تغمر وجه هيرتون عندما راح يخلع جذور العشب ويغرسها فوق قبره ـ وهى الآن يانعة خضراء كتلك التى تغطى القبرين الآخرين ـ وشد ما أرجو أن يكون ساكنه ينام نوما عميقا كساكنيهما ..

ولكنك إذا سألت الريفيين فسوف يقسمون على الكتاب المقدس انه يسير على قدميه !.. فهناك من يتحدثون عن لقائهم به بالقرب من الكنيسة ، أو فوق البرارى ، بل حتى فى هذا المنزل !.. سوف تقول انها خرافة سخيفة ، وكذلك اقول أنا .. ومع ذلك فان ذلك الشيخ الجالس بجوار المدفأة يؤكد انه رأى الاثنين معا يتطلعان من نافذة حجرته فى كل ليلة ممطرة منذ وفاته !

ثم اننى وقع لى أمر غريب منذ شهر تقريبا .. كنت ذاهبة إلى « الجرانج » ذات مساء ـ وكانت امسية مظلمة تنذر بالرعد والمطر ـ فما أن بلغت منحنى الطريق القادم من « المرتفعات » حتى قابلت صبيا صغيرا أمامه شاة وحملان .. كان يبكى بكاء مروعا ، فحسبت الحملين يشاكسانه ولا يستجيبان لقيادته .. فسألته :

ـ ماذا هنالك أيها الرجل الصغير ؟

فغمغم يقول وهو ينفطر باكيا :

ـ هناك هيثكليف وامرأة معه ، تحت تلك الاكمة .. ولست أجرؤ على المرور بهما ..

ونظرت ، فلم أر شيئا .. ولكن لا هو ، ولا الخراف ، رضى أن يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام .. فأمرته بأن يسلك طريقا آخر أسفل ذلك الطريق .. والأرجح انه كان يتصور وجود الأشباح من كثرة تفكيره فيها ، وهو يقطع البرارى وحده ، من كثرة ذلك الهراء الذى يسمع والديه ورفاقه يرددونه .. ومع ذلك فاننى ، الآن ، لا أحب الخروج فى الليل !.. ولا أحب أن أترك وحدى فى هذا المنزل الكئيب !.. ان الأمر ليس بيدى ، ولا حيلة لى فيه !.. وسوف أسعد كثيرا عندما يتركان هذا المنزل ويذهبان للاقامة فى «الجرانج» فقلت :

ـ هل ينويان الذهاب إلى الجرانج اذن ؟

فأجابت مسز دين :

ـ نعم ، بمجرد زواجهما فى أول العام الجديد ..

ـ ومن الذى سيقيم هنا اذن ؟

ـ سوف يبقى جوزيف للعناية بالمنزل ، وربما بقى معه أحد الغلمان ليكون رفيقا له .. وسوف يعيشان فى المطبخ وتوصد باقى حجرات المنزل ..

فغمغمت قائلا :

ـ نعم .. ليمرح فيه أى عدد من الأشباح تطيب له الاقامة به !

ولكن نللى هزت رأسها قائلة :

ـ كلا يامسز لوكوود !.. اننى أعتقد أن الموتى يرقدون

فى سلام !.. ولكن ليس من الصواب أن يتحدث المرء عنهم فى طيش ورعونة !

وفى تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة فى دفعة قوية .. فقد كان الصاحبان عائدين من جولتهما .. فقلت مزمجرا ، بينما كنت أرقب من خلال النافذة اقترابهما :

ـ ولكن هذين لا يخافان شيئا .. انهما ـ معا ـ خليقان بأن يواجها الشيطان وعصبته جميعا !

وفيما كانا يخطوان إلى سلم الباب ، ثم يتمهلان ليلقيا نظرة اخيرة على القمر الساطع ـ او على الأصح لينظر كل منهما إلى الآخر ـ شعرت بدافع لا يقاوم يستحثنى ثانية على تجنب لقائهما .. فدسست شيئا للذكرى فى يد مسز دين ، وتسللت ـ غير عابىء باحتجاجها على فظاظتى ـ إلى المطبخ بينما كانا يهمان بالدخول من باب حجرة الاستقبال .. ولعل ذلك كان خليقا بأن يؤيد رأى جوزيف فى أمر مغامرات زميلته مسز دين ، لولا انه لحسن الحظ قد عرف اننى شخص فاضل محترم ، من ذلك الرنين الجميل لقطعة الذهب التى القيتها عند قدميه ..

. . . .

ولقد طال مسيرى نحو منزلى ، بسبب تحولى نحو الطريق إلى الكنيسة .. فلما بلغت مكانها ، ووقفت تحت جدرانها ، تبينت أن الخراب قد تقدم بها شأوا بعيدا فى السبعة الشهور الماضية .. فكم من نافذة كانت تبدو فجوة سوداء

خالية من الزجاج ، وكم من احجار برزت من مواضعها ، والواح انفلتت من أماكنها فى الأسقف ، لتصبح وشيكا فريسة سهلة لعواصف الخريف المقبلة ..

وبحثت ، وسرعان ما عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر ملاصقة للبرارى .. كان أوسطها داكن اللون يعلو فوقه العشب حتى يوشك أن يغطيه كله .. اما شاهد قبر ادجار لينتون فان الطحالب والحشائش كانت تزحف عند أعتابه .. بينما كان شاهد قبر هيثكليف ما يزال عاريا مجردا ..

تلكأت حولها ، تحت تلك السماء الصافية ، ورحت أرقب الفراشات وهى ترفرف بأجنحتها بين الهيش والحشائش ، وأصغى إلى همسات الريح الرقيقة وانفاسها بين العشب ، وأعجب كيف يمكن لأى امرىء أن يتصور نومة قلقة مضطربة لأولئك الذين ينامون فى هذه الأرض الهادئة الساجية ..

« تمت »





مطبوعات كتابي
إصدار جديد

١٢٤٥٩

عزيزي القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شيء تقريبا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) .

أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ــ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ــ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ــ ١٨٥٥) ، وماتت به «اميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ــ ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ــ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرًا «آن» . وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات ألحق الاب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ــ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين أير) باسم «لووود» .

حلمي مراد